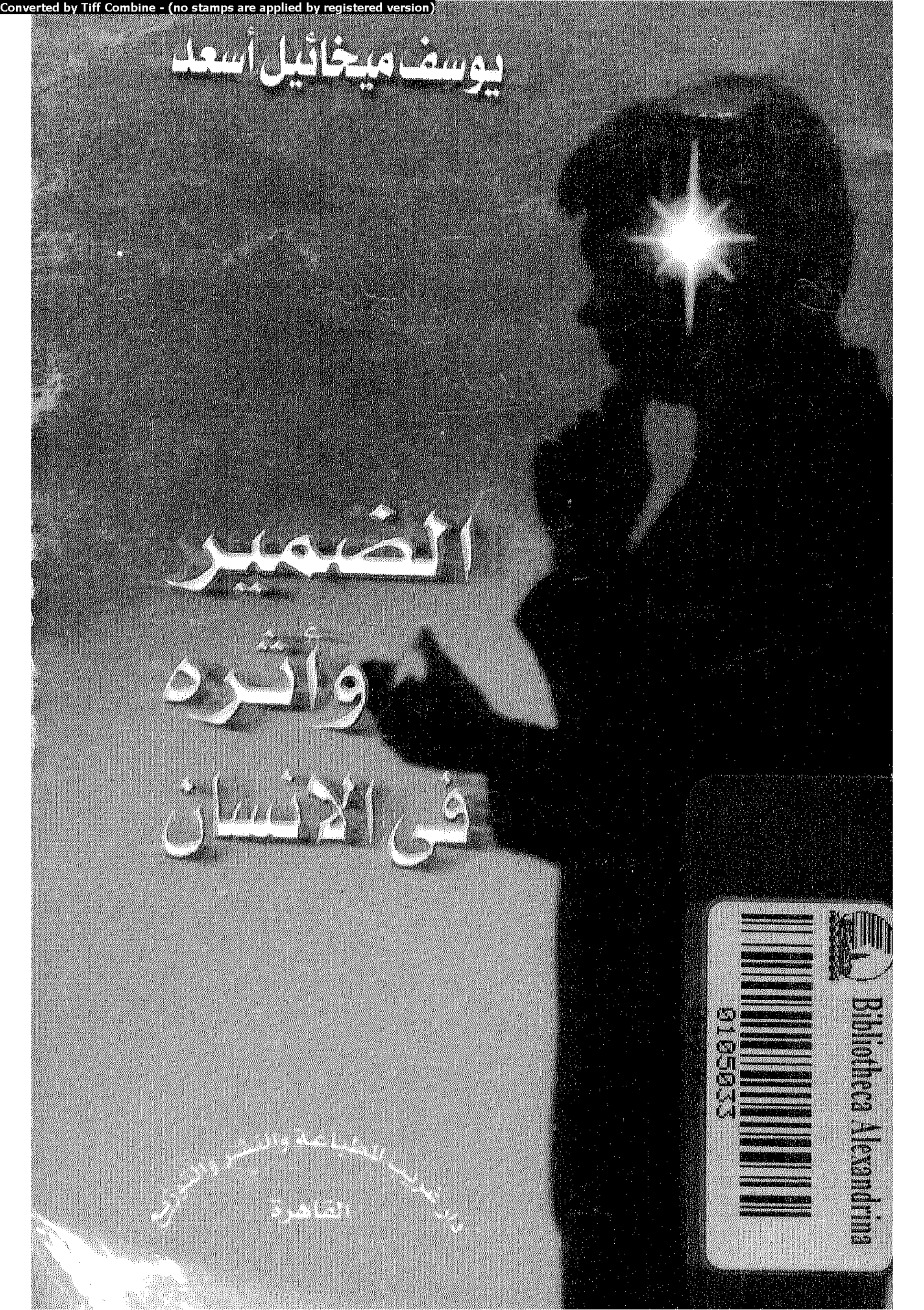

يوسف ميخائيل أسعد
الضمير
وأثره
فى الانسان
دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة



الضمير وأثره فى الانسان

يوسف ميخائيل أسعد

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتـــــــاب : الضمير وأثره في الإنسان
المـــؤلـــف : أ / يوسف ميخائيل أسعد
تاريخ النشــــر : ١٩٩٨
رقـــم الإيـــداع : ٧٩٤٩ / ٩٨
الترقـيم الدولى : I S B N 977-215-341-6

الناشــــــر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤
التوزيــــع : دار غريب ١ ، ٣ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

المقدمـــة

فى جلسة صداقة ومودة مع **الأستاذ هانى أحمد غريب**، تطرَّق الحديث إلى موضوع الضمير، فسألنى سيادته عما إذا كنت قد تناولت موضوع **الضمير** بالدراسة والمعالجة، فقلت له «ربما أكون قد عرضت له لمامًا فى ثنايا ما سبق أن قمت بتأليفه من كتب ومقالات، ولكنى أقول بصراحة إنى كنت أنظر دائمًا إلى هذا الموضوع باعتباره موضوعًا دينيًا أو أخلاقيًا، ولذا فإنى كنت أتحاشى الخوض فيه».

فقال لى «ولكن حتى الموضوعات الدينية والأخلاقية يبطِّنها فكر سيكولوجى، فلماذا لا تتناوله من الزاوية السيكولوجية التى تعتبر الركيزة التى لا يهملها الفكر الدينى والأخلاقى؟» فكان لملاحظته هذه الأثر الكبير فى ذهنى، وتساءلت بينى وبين نفسى، وماذا يحول دون أن أخوض غمار هذا الموضوع الهام، الذى يعتمل فى قوام النفس البشرية، وأن أحاول أن أكتشف خفاياه السيكولوجية؟

وعلى هذا فإنى عزمت بالفعل أن أحاول سَبْر أغواره العميقة، حتى يتسنى لى أن أكشف النقاب عما خفى فى

طيـــاته من مناخ وتـوجُّهـــات، قـــد تعـــمـل على مـــســـاعـــدة من يتناولونه مـن الزاويتين الدينيـة والأخـلاقـيـة، على الوقـوف على مـقـومـاتـه السـيكولوجـيـة، فـيـضـيـفـون بـذلك جـانـبًا هـامًا إلى الجوانب التى يركّزون عليها اهتمامهم.

يوسف ميخائيل أسعد

أكتوبر ١٩٩٧

الفصل الأول

معنى الضمير

المعانى المختلفة للضمير:

ينصرف الذهن لدى استخدام لفظ الضمير إلى ما قد يعاتب المرء نفسه عليه من خطايا ينهى الدين عن اقترافها، حتى ولو اقترفها بينه وبين نفسه، أو بينه وبين شخص أو أشخاص. بيد أن للضمير مجموعة من المعانى التى نستطيع تقديمها على النحو التالى:

أولاً - المعنى الاعتقادى: فالشخص المتدِّين، قد يؤنبه ضميره، لأنه قد سبق أن أخذ يشك فى بعض المعتقدات الدينية التى يحضُّه دينه على الإيمان بها، أو قد يؤنبه ضميره لأنه لم يحاول ذَبَّ تلك الشكوك عن عقله وقلبه، بل تمادى فيها. وأكثر من هذا فإنه نقلها إلى غيره من أصدقائه، فشاعت بينهم، وصاروا يشكون فى تلك المعتقدات. ولكنه

يحـاول الآن الرجـوع إلـى مـا كـان عليـه من رسـوخ فـى الاعـتقـاد الذى شك فيـه قـبل ذلك، ويعـاتب نفـسـه أشـد العـتـاب على انخـراطه فى تلك الشكوك العـقـائدية، ويتمنـى ألا تعاوده مـرة أخرى، حتى يظل متمسكًا بجميع معتقداته الدينية.

ثانيًا - المعنى العـلائقى: وهـذا المعنـى ينصب علـى مـا يعاتب المرء نفسه بصدده، لأنه شك فى إخلاص شخص معين تربطه به عـلاقـة وثيـقـة. ذلك أن شـخـصًا خـبيـثًا قـد أوقع بينهمـا، وأخـذ يشككه فى إخـلاصـه له، زاعمًا أنـه يتآمـر ضـده فى الخـفـاء، بعيـدًا عن علمـه، فـأنصت إلـى فِريات ذلك العـدو المفـتـرى الذى زعم أنه صـديق صـدوق. وكـانت نتـيـجـة تلك الوشـايات والفِريات، أن الصـديقَين انقطعت عـلاقـة الصـداقـة التى كانت قـائمة ومتينة فيما بينهمـا، فقاطع صاحبنا صديقه المخلص، بعـد أن واجهه بالاتهـام المنسوب إليـه بصرامـة، متهمًا إياه بخيانته له من وراء ظهـره، وأنه يتظاهـر بـالصداقة، مع أن الحـقيـقـة أنه يُكن له الـكراهيـة والعـداء برغم مـا يبديـه له من مودة زائفة ومحبة كاذبة. ولكن صاحبنا اكتشف الحقيقة بعد فـوات الأوان، وتأكـد من سـوء نيـة ذلـك المفـتـرى، الذى خطط بخبث ومهارة لكى يوقع بينه وبين ذلك الصديق المخلص. فلما أفـاق صـاحـبنـا إلى رشـده، ووقف على جليـة الأمـر، أراد أن

يسترد الصداقة الغالية التى فقدها ولكن دون جدوى. فالصداقة تشبه لوح الزجاج الذى إذا ما تحطَّم، فإن من المستحيل إعادته سليمًا كما كان. وهو الآن خاضع لتأنيب ضميره، لأنه تسرع وحكم على صديقه المخلص بأنه خائن.

ثالثًا - المعنى الجنسي: ولقد يتركز تأنيب الضمير بصدد ما تورَّط فيه المرء من علاقات جنسية آثمة. وليس شرطًا أن يكون المرء قد تورَّط بالفعل فى خطيئة الزنا، بل إنه قد يعتبر نفسه خاطئًا، لأنه اشتهى جسد امرأة جميلة وهو سائر فى الطريق، فصار يحس بهذه النظرة الاشتهائية، أنه قد خان زوجته المخلصة، وأن مجرد اشتهاء جانب من جمال جسد غير متوافر لدى تلك التى عاهد الله على تكريس عقله وقلبه لها، إنما هو خطيئة جنسية عظيمة، لابد أن ضميره يؤنبه على اقترافها.

رابعًا - المعنى التقصيرى: فالطالب الذى يهمل فى استذكار دروسه، وقد أخذ يقضى وقت الاستذكار مع بعض الأصدقاء، وهو الوقت الذى كان يجب تكريسه فى استيعاب ما قطع من المنهج المقرر، ولكنه قضاه فى اللهو والعبث، فبعد عودته إلى المنزل أخذ يحس بوخز ضميره الذى أخذ يؤلمه على الوقت الذى أضاعه سُدًى، مما سوف يؤثر فى نتيجته

آخر العام. وكذا فإن الطبيب الذى علم أن مريضه الذى أجرى له عملية جراحية دقيقة قد قضى نحبه، وذلك لأنه قصَّر فى رعايته ومتابعته بعد إجرائها، فأخذ فى عتاب نفسه، وقد صار ضميره يؤنبه على ما قصَّر فيه.

خامساً - المعنى التربوى: فالوالدان اللذان يحسان بأنهما قد فشلا فى تنشئة أولادهما، فصاروا فاشلين فى حياتهم، وذلك بسبب عدم الاهتمام بهم، وترك الحبل على الغارب لهم. فلم يتعاونا مع المدرسة فى رعايتهم دراسيًا، كما أنهما لم يتأكدا من حسن اختيارهم لأصدقائهم. وهما بالمقارنة بين أولادهما وأولاد الجيران الناجحين فى دراستهم، والذين يشهد لهم الجميع بالاستقامة والأخلاق الرفيعة، على عكس أولادهما الفاشلين فى الدراسة، والمنكبين على تعاطى المخدرات، والسهر إلى الفجر كل يوم مع أصدقاء السوء، إنما يحسان بوخز الضمير، لأنهما لم يكونا صالحين لتربية أولئك الأولاد، ولم يفيقا إلى ما كان يجب عليهما النهج وَفْقه إلا بعد فوات الأوان. فضميرهما يعذبهما، ولكن بغير أمل فى استعادة ما فلت من قبضتهما، وما خرج عن نطاق نفوذهما كوالدين مسؤولين أمام الله عن رعاية أولادهما، والسهر على تربيتهما تربية صالحة.

معانى الضمير من زوايا أخرى:

وبعد أن استعرضنا هذه المعانى الخمسة للضمير، فإننا نستطيع أن ننظر إلى معنى الضمير من زوايا أخرى على النحو التالى:

أولاً - الزاوية العقلية: فلقد يتركز تأنيب الضمير على ما فات المرء الوقوف عليه وإدراكه من بعض المدركات البصرية. افترض أنك سائر فى الطريق، فوجدت شخصًا ما فى مواجهتك، وقد أخذ يحييك وهو مقبل عليك، ولكنك ظننت أنه يحيى شخصا آخر كان يسير إلى جانبك، وانصرفت لحالك وانصرف هو أيضا لحاله، ولكن بعد لحظات تذكرت أن ذلك الشخص الذى حيَّاك ولم ترد على تحيته، هو صديق مرت بضع سنوات لم تقابله خلالها، فتغيَّرت بعض ملامحه، ومن ثَمَّ فإنك لم تتعرف عليه. إنك قد تحس بوخز الضمير لأنه بالطبع قد أحرج لأنه ظن بالتأكيد أنك تتجاهله، ولا ترغب فى الرد على تحيته. وقد يحدث ما يسمى بالإدراك البَعْدى، أى أنك لم تدرك أن ذلك الشخص الذى كان يبتسم لك ويحييك، إلا بعد انصرافه عنك. وكذا فإن تأنيب الضمير قد ينصب على ما فَلَت من الذاكرة. فأنت فى أحد امتحانات الشفوى بالكلية التى تدرس بها، لم تتذكر إجابة السؤال الذى وجهه إليك الممتحن، مع أنك تعرف الإجابة جيدًا. وبعد

خروجك من اللجنة تذكرت الإجابة ولكن بعد فوات الأوان. فأخذ ضميرك يؤنبك على الرغم من أنه لا ذنب لك فى هذا النسيان المؤقت لإجابة السؤال الذى وجهه الممتحن إليك.

ثانيًا – الزاوية الوجدانية: فأنت قد تحس بتأنيب الضمير لأنك تجهمت فى وجه طفل برئ أراد أن يتودد إليك لأنه ابن أحد الجيران، ولكنك تستثقل دمه، ولا تحس إلا بالكراهية والمقت والاشمئزاز من مجرد النظر إليه. فعندما حياك، فإنك استدرت بعيدًا عنه، فشعر الطفل بالخجل وانصرف لحال سبيله. ولكن بعد أن جلست إلى نفسك، فإنك أخذت فى تأنيب نفسك على هذا الموقف. وأخذت تقول لنفسك، «وهل هو الذى جعل نفسه ثقيل الظل، وأليس من اللائق أن أعامل الناس بالحسنى بغض النظر عن ملامحهم أو أوضاعهم الاجتماعية؟»

ثالثًا – الزاوية الإرادية: وضمير المرء قد يعاتبه إما لأنه كان يجب عليه أن يؤدى بعض الأعمال، أو أن يتخذ بعض المواقف، أو أن يقيم بعض العلاقات ولكنه لم يفعل، أو قام بها بطريقة رديئة أو ناقصة، أو كان يجب عليه أن يمتنع عن القيام ببعض التصرفات، وأن يتجنب بعض المواقف، أو أن يتحاشى بعض العلاقات، ولكنه أقدم عليها، وهو الآن نادم على تورّطه بالانخراط فيها.

رابعًا - الزاوية الخِبْرية التحصيلية: فالشخص المثقف قد يؤنبه ضميره لأنه بعد حصوله على درجة الدكتوراه، قد انشغل عن الاستمرار فى متابعة التطورات العلمية التى تقع فى مجال تخصصه. ومن المعروف أن العلوم جميعًا تتقدم بسرعة هائلة، وتتفتق بعضها من بعض بلا توقُّف. فهو يحس أنه قد تخلَّف عن الركب، وأن بعضًا من طلبته الذين تخرجوا من تحت يديه، قد سبقوه، وأخذوا يواكبون التطورات العلمية التى لم يقف عليها، بل تقاعس عن المثابرة والاستمرار فى اكتسابها، والتماشى مع كل ما يستجد فى مجال تخصصه. فهو يَعَض بنان الندم، لأنه مهما بدأ من جديد فى اللحاق بما فاته، وبما يستجد من معرفة علمية، ومن تكنولوجيات مستمرة فى التدفق، فإنه سوف يظل متخلفًا وعاجزًا عن تحصيل ما فاته، والاستمرار فى تحصيل ما سوف يستجد بتدفق خطير وفق متتالية هندسية تضاعفية كما هو معروف.

خامسًا - الزاوية الخبرية التصديرية: وهذه الزاوية تتعلق بما يقدمه المرء من إنتاج فى مجال ما من المجالات الحضارية الكثيرة، وعلى رأسها المجالات الحضارية الإبداعية. فالواقع أن المبدعين يقدِّرون وقتهم كل التقدير، ويعتبرون أن لكل ثانية من حياتهم قيمة عظيمة. وهم يعتقدون أن الوقوف على ما يستجد فى المجال الذى يتخصصون فيه، وينفقون فيه جهدهم

ووقتهم، لا يكتمل العمل فيه إلا بالتصدير. فالتحصيل الخبرى، لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة للتصدير الخبرى. فالمؤلف الذى يقصر فى الكتابة يومًا أو بعض يوم، يعاتب نفسه، ويؤلمه ضميره، ويعتبر أن اليوم الذى لا يقدم فيه الجديد غير المسبوق، هو يوم ضائع من حياته.

طبيعة الضمير وكُنْهه:

ولعل سائلاً يتساءل قائلاً «إنك بما قدمته فى البنود الخمسة الأولى، ثم فى البنود الخمسة الثانية، يقع فى نطاق المجالات أو الزوايا التى يعتمل فيها الضمير، ولكنك لم تقدم لنا شيئًا عنْ طبيعة الضمير. فالسؤال الذى ينبغى أن يثار هو ما هو الضمير؟» وللرد عن هذا التساؤل نقدم النقاط التالية:

أولاً - الضمير جهاز نفسى تقييمى: فما يسمى بالضمير، إنما هو جهاز نفسى يتعلق بجهاز الأنا. فالمرء يهتم بتقييم نفسه بنفسه، كما أنه يتلقى تقييمات الآخرين له، ولما يَصْدر عنه من أفعال أو نتاجات، أو لما يتخذه من مواقف. فثمة ما يعرف بعاطفة اعتبار الذات Self - regarding - sentiment وواضح أن تقدير الذات يستمد من مصدرين أساسيين: الأول تقييم المرء لنفسه، والثانى تقييم الآخرين له. فجهاز الضمير يقوم بمعاتبة المرء عن التقصير أو عن الانزلاق فى

الأخطاء إذا تبدت نتيجة تقييم المرء لنفسه، أو نتيجة تقييم الآخرين له على غير ما يرام.

ثانيًا - الضمير يتصف بشمولية الأنحاء: فهو لا يقتصر على تقييم جانب واحد من الشخصية، كما أنه لا يهمل أى جانب منها، بل يتناول العقل والوجدان والإرادة، والمظهر العام، والتصرفات التى أتاها المرء، وما تردّى فيه من أخطاء مقصودة أو غير مقصودة.

ثالثًا - الضمير يتناول الماضى والحاضر والمستقبل: فهو لا يعاتب صاحبه على ما صدر عن سلوكه من فعل أو قول فى الماضى فحسب، بل يحاسبه أيضًا عما يقوم بفعله أو بقوله فى الآن الراهن، وعما سوف يتخذه من تصرفات أو ما سوف يقوله من كلام فى المستقبل. ومعنى هذا أن الضمير ليس مقتصرًا على التأنيب فحسب، بل يضطلع أيضًا بتصحيح السلوك قبل الإتيان به، أو فى اللحظة التى يحدث فيها، وما يتخذه من مواقف فى المستقبل.

رابعًا - الضمير قد يبالغ فى التراخى وقد يبالغ فى القسوة: فالواقع أن هذا الجهاز النفسى قد يكون سويًا، كما أنه قد يتعرض للانحراف إما إلى البلادة والخمول والتراخى، وإما إلى التطرف والمبالغة فى تقدير الأخطاء والمواقف،

والإلحاف على التبكيت والتأنيب، لدرجة أنه قد يدفع بصاحبه إما إلى الجنون، وإما إلى الانتحار.

خامساً - الضمير قد يكون فردياً كما قد يكون جماعياً:

فالمرء فى حياته الشخصية، وفى علاقاته بغيره وبنفسه، وبما يتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل، إنما يكون صاحب ضمير فردى. ولكن الضمير قد يتسع لكى يشمل مجموعة من الناس قد تكون محدودة، كما أنه قد يكون شاملاً لشعب بأسره. فعندما ينهزم جيش شعب ما أمام جيش شعب آخر، فإن ضميره قد يثور ثورة عارمة، فلا يبقى ولا يذر، وينتقم من قادته العسكريين، بل قد يقوم بانقلاب عسكرى ضد زعمائه السياسيين. فالضمير إذن قد يكون ضميراً فردياً، كما أنه قد يكون ضميراً جماعياً.

* * *

الفصل الثانى

الضمير والتربية الذاتية

الضمير يقيّم ويقوّم سلوك صاحبه:

قلنا إن الضمير بصفة عامة، عبارة عن جهاز نفسى تقييمى تقويمى، بمعنى أنه يقوم بالتمييز بين الخير والشر من جهة، وبين المفيد والضار من جهة ثانية، وبين المناسب من الفكر والعاطفة والإرادة وغير المناسب من جهة ثالثة. ثم إنه يقوم بتنبيه المرء إلى ما يكتنف سلوكه من شر ومن ضرر ومن بُعْد عما يناسبه، وعما يناسب المواقف التى يوجد بها، وما ينسجم مع الظروف التى تكتنف حياته. ولقد يستجيب المرء أو لا يستجيب لما يقوم به ضميره من تمييزات ومن توجيهات، فيُعِد الطاقة النفسية التى يتسنى له عن طريقها أن يقوم بتصحيح سلوكه، وتوجيهه الوِجْهة السوية.

حتمية تعديل السلوك:

وهناك فى الواقع ضرورة حتمية لتعديل السلوك، وذلك

بسبب اعتمال مجموعة من الأسباب التى نستطيع تقديمها على النحو التالى:

أولاً - التوافق مع متطلبات مرحلة النمو: فمما لاشك فيه أن لكل مرحلة عمرية من المراحل التى ينخرط فيها المرء تباعًا من يوم ميلاده حتى انتهاء عمره فى الشيخوخة، إذا ما قيِّض له أن يظل على قيد الحياة حتى الشيخوخة. متطلبات معينة. فمتطلبات مرحلة الطفولة تتباين عن متطلبات مرحلة المراهقة، ومتطلبات مرحلة المراهقة تتباين عن متطلبات مرحلة الشباب ومتطلبات مرحلة الشباب تتباين عن متطلبات مرحلة الكهولة (بين ٣٠ ، ٥٠ سنة)، ومتطلبات مرحلة الكهولة تتباين عن متطلبات مرحلة الشيخوخة.

ثانيًا - التوافق مع متطلبات الوضع الاجتماعي: فلكل حرفة أو مهنة أو وظيفة أو وضع اجتماعى، المتطلبات التى يجب أن يوفرها المرء لنفسه، حتى يتحقق له التقدم فى حرفته أو مهنته أو وظيفته أو فى الوضع الاجتماعى الذى بلغه.

ثالثًا - التوافق الثقافي: فكل خبرة معرفية أو مهارية أو علائقية، يكتسبها المرء وتتفاعل مع ما سبق له اكتسابه، تستلزم تعديلاً فى سلوكه، حتى يتم له التوافق معها.

رابعًا - التوافق الأخلاقي: فثمة مستويات كثيرة من

السلوك الأخلاقى. وكلما تسلَّق المرء مراقى أخلاقية أرقى من المستوى الأخلاقى الذى كان عليه قبلاً، أو رغب فى ذلك التسلُّق والارتقاء، فيكون من المحتَّم عليه أن ينبذ بعض أساليبه الأخلاقية التى كان يتلحَّف بها، والتى لم تَعُد مناسبة للمستوى الأخلاقى الذى توصَّل إليه أو الذى يصبو لتحقيقه فى شخصيته، كما يكون عليه أن يتلحَّف بأساليب سلوكية أخلاقية جديدة لم يكن قد اكتسبها قبل ذلك.

خامساً – التوافق الدينى: فكلما تعمق المرء فى دينه، وتذرع بالأفكار والمبادئ والقيم الروحية، فإنه يحذف من سلوكه ما يرى أنه لا يتفق مع ما استفاده بعد تعمقه الدينى، كما أنه يضيف إليه عناصر جديدة تتفق مع المستوى الدينى الراقى الذى بلغه.

ديناميات الضمير:

وعلينا بعد هذا أن نلقى الضوء على الديناميات السلوكية التى تعتمل فى جهاز الضمير، والتى تؤدى إلى تلك التطورات السلوكية التى عرضنا لها فى البنود الخمسة السابقة، والديناميات هى:

أولاً – دينامية الارتقاء: فالإنسان مجبول على الارتقاء المستمر. ولكن قد تحيط به مؤثرات تربوية أو اجتماعية

فاسدة تُعيق تقدمه الارتقائى، أو تعمل على إفساد طبيعته الارتقائية التى جُبِل عليها.

ثانيًا – دينامية تصحيح المسار: وطالما أن المرء مجبول على الارتقاء، فإنه حتى إذا تلوّث سلوكه، أو انحرف عن المسار الذى كان ينبغى أن يسلكه، فإنه يحاول نفض غبار الخطأ أو الشر عن شخصيته، وأن يتخلّص من المقومات التى تَحُول دون تقدمه، ويأخذ فى انتهاج طريق أفضل من الطريق الذى انخرط فيه، وضرب فى إثره.

ثالثًا – دينامية التشوُّف المستقبلى: ويتمتع الإنسان أيضًا بطبيعة تطلُّعية إلى المستقبل، فهو إلى جانب تصفحه للماضى، ووقوفه على الحاضر، فإنه يتطلع إلى ما سوف يتأتى عن أحداث الماضى والحاضر من نتائج فى المستقبل. ولذا فإنه يستبعد بعض العوامل التى يرى أنها يمكن أن تُعيق تقدمه نحو المستقبل الجيد، بينما تؤدى به إلى مستقبل ردىء. وبالإضافة إلى هذا فإنه يضيف المؤثرات التى تعمل على الارتقاء بمستواه فى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد على السواء.

رابعًا – دينامية عقد المقارنات: فالإنسان لا ينكفئ على نفسه باستمرار، فلا يرى ويتأمل من يحيطون به من

أشخاص، ولا يقف على الميزات الخلقية والثقافية والاقتصادية التى حازوها، بل إنه يقارن نفسه بمن بَزّوه وتفوّقوا عليه فى مجال أو أكثر من مجالات الحياة المتباينة. وبتعبير آخر فإنه يقف على النقائص التى تشوب شخصيته، كما أنه يقف على الميزات التى حازها، والمستويات الشخصية التى بلغها، ثم إنه يتحسس الطرق التى إذا ما سار فيها، فإنه سوف يصل إلى المستويات السامية التى بلغها غيره. فهو لا ينقل عن المتفوقين عليه فى المجالات المختلفة، الأهداف التى ترسّموها ثم بلغوها فحسب، بل إنه يستعين أيضًا بالوسائل الفعالة والمجدية التى أهلتهم لبلوغ تلك المستويات العليا من السلوك، وجعلت شخصياتهم ممتازة.

خامسًا - ديناميـة التفاعل بين المثل العليا وبين الواقع السلوكى: فالواقع أن ما يستولى على قلب المرء وعقله من مثل عليا دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، تتفاعل مع واقعه الشخصى، بحيث قد يتأتى عن ذلك التفاعل الاقتراب من تلك المثل العليا، وذلك بفضل ما يبذله من جهد فى سبيل تحقيق الخطط التى وضعها للاقتراب منها، ولحدوث التفاعل بين واقعه وبينها.

الوسائل التربوية لتقوية الضمير: لا

وعلينا أن نتساءل عن الخطوات التربوية التى يجب على

المرء اتخاذها فى سبيل تقوية ضميره، وتسليحه بالوسائل الفعالة فى تسيير سلوكه والنهوض به إلى مستويات رفيعة، وهى على النحو التالى:

أولاً - توفير الوقت للاعتكاف: فالواقع أن الأشخاص الذين يظلون فى اتصال مستمر أو شبه مستمر بالناس، لقضاء المصالح، أو للنهوض بالمهام الموكولة إليهم، كثيراً ما يفقدون جانباً من قوة الضمير، فلا تكون لديهم ركيزة ذاتية يرتكزون عليها، بل يندمجون فى الواقع الخارجى، وينصهرون فيه، وبالتالى فإنهم لا يحسون بذواتهم، ولا يتمكنون من عقد مقارنات ومفاضلات بين أحوالهم النفسية وبين المستوى الذى بلغه بعض الأشخاص الذين يعتبرون مثلاً عليا يجب التأسِّى بها، ويوجدون بالواقع الخارجى أو كانوا يوجدون به، ثم احتلوا أماكنهم فى سجل التاريخ. ويترتب على اندماجهم فى الواقع الخارجى دون الالتفات إلى أنفسهم، ودون الوقوف على المستوى النفسى الذى بلغوه، أنهم لا يستطيعون الإفادة من تلك المثل العليا دون أن يقتبسوا منهجها فى الحياة، بل يكون همهم الأول والأخير، هو تحقيق التجانس بينهم وبين الواقع الخارجى، بل والانصهار فى بوتقته.

ثانياً - تحاشى المؤثرات السلوكية الرديئة: فكما أن الطبيب يأمر مريضه بأن يتجنب المصادر والمؤثرات التى

تؤذيه صحيًا، وتزيد من تدهور قوامه البيولوجى، كذا فإن التربية الذاتية، التى يرجى أن تعمل على تقوية الضمير الشخصى، تكون نقطة البداية فيها، متمثلة فى البعد عن المؤثرات الرديئة التى تعمل على الحط من مستوى الشخصية. فكلما تخلَّص المرء من النقائص والمعوِّقات التى تعمل على إبطال أو إضعاف الضمير، فإنه يكون قد عمل بذلك بطريق غير مباشر على تقوية ضميره، وإفعامه بالحيوية والصحوة.

ثالثًا – ترقيق المشاعر بالتربية الجمالية: فالواقع أن الطريق المؤدى إلى صحوة الضمير وتقويته، هو طريق الجمال. فمن يبدأ بتذوق ما تشتمل عليه الحياة من جمال، وما أبدعه الفنانون من صيغ جمالية مرئية أو مسموعة، فإنه يكون بهذا قد بدأ أيضًا فى تذوق الحق والخير. فثالوث الحق والخير والجمال، مترابط بعضه مع بعض بحيث إن من يبدأ بالتفاعل مع الحق، فإنه يكتسب القدرة على التفاعل مع الخير والجمال، ومن يتفاعل مع الخير، فإنه يكتسب القدرة على التفاعل مع الحق والجمال. ولكن الواقع أن تذوق الجمال أسهل وأيسر من التفاعل مع الحق والخير. وعلى أية حال فإن تقوية الضمير تتأتى للمرء إذا ما اكتمل لديه هذا الثالوث فى قوامه النفسى.

رابعًا - التمرُّس بالعادات الجيدة: فالواقع أن من أهم العوامل التى تؤدى إلى تقوية الضمير، تمرُّس المرء بالعادات العقلية والعادات الوجدانية والعادات الأدائية والعادات الاجتماعية الجيدة. فالاعتياد على هذه العادات الأربع، يجعل المرء أكثر حساسية لأى انحراف عن مسارها. وقد سبق أن قلنا إن للضمير وظيفة تقييمية وأخرى تقويمية. فأى انحراف عما اكتسبه المرء من هذه العادات الأربع، يثير انتباهه، ويشعره بأنه قد انحرف عن مسارها، فيبدأ ضميره فى إصلاح ما اعوج منها. وبتعبير آخر فإن العمود الفقارى للسلوك الطيب، هوتلك العادات التى يكتسبها المرء، ويتمرَّس بها، ويتقن أداءها، بحيث يحس بالضيق والتبرُّم إذا هو انحرف فى أدائها ولو قيدَ أنملة.

خامسًا - التكفير عن الانحرافات السلوكية: ومن وسائل تقوية الضمير، قيام المرء بالتكفير عما انحرف فيه من سلوكيات. بيد أن التكفير لابد أن يكون متمشيًا مع الدرب نفسه الذى حدث فيه الانحراف. فإذا كان الانحراف عقليًا، فلابد أن يكون التكفير عن الأخطاء العقلية عقليًا. فمثلاً الطالب الذى يحس بوخز الضمير بعد رسوبه فى الامتحان، فإن عليه أن يكفِّر عن إهماله لدراسته، والتقاعس عن

الاستذكار الجيد، وذلك بالانكباب على استيعاب المناهج المقررة بالطريقة السليمة. وقس على هذا جميع الانحرافات السلوكية. فالتكفير عن تلك الانحرافات، يعمل بلا شك على تقوية ضمير المرء بصدد الزاوية التى يؤنّبه بإزائها.

* * *

الفصل الثالث

الضمير والذكريات

الذكريات الحية والذكريات المنسيّة:

من المعروف أن الإنسان يتصل بالواقع الخارجى عن طريق حواسه الخمس، فيقف على الأحداث والمواقف، التى قد تبعث فى قلبه السرور والرضا، كما قد تترك فى نفسه أثرًا رديئًا يتلقاه بواسطة حاسة أو أكثر من حواسه الخمس. ثم إن جانبًا من تلك الأحداث السارة ومن الأحداث المكدِّرة يترسَّب فى الذاكرة. فليست جميع الوقائع التى يدركها المرء بحواسه، تترسَّب فى ذاكرته، كما أن بعض ما ترسَّب بالفعل فى الذاكرة يعلوه النسيان، سواء كان نسيانًا مطلقًا، بمعنى التلاشى التام من الذاكرة، أم كان نسيانًا نسبيًا، بمعنى أنه يعمل على خفوت قوة الذكريات التى ترسبت فى الذاكرة.

الذكريات وبطانتها الوجدانية:

والذكريات التى تحتفظ بها الذاكرة كما استقبلتها، أو بعد أن تضعف أو تدخل عليها بعض التغيُّرات بواسطة

المخيلة، لا تكون مجرد مدركات ذهنية خالية من المقومات الوجدانية الانفعالية، بل إنها تكون متلبِّسة بطاقة وجدانية انفعالية كبيرة ومحتدمة، أو تكون متلبِّسة بطاقة وجدانية انفعالية صغيرة وخافتة. ومن هنا فإن الذكريات يمكن أن تؤثِّر فى القوام النفسى للمرء بدرجة أو بأخرى من درجات التأثير.

الذكريات اللاشعورية:

وبعض الذكريات المفعمة بالانفعالات، والتى تشكِّل خطرًا على الشخصية، تهبط إلى اللاشعور، حيث تختبئ هناك، ولا يتذكرها المرء، ولكنها قد تُطِل من النوافذ السلوكية، فيكون الشخص المفعم بتلك المكبوتات اللاشعورية عصبيًا أو مُقْدمًا على تصرفات رديئة كالسرقة المرضية والمخاوف المرضية والوسواس والأعمال القهرية، كما أنه قد يتعرَّض للأحلام المزعجة والكوابيس فى أثناء انخراطه فى النوم، أو قد ينخرط فى غير ذلك من ألوان السلوك التى تشير إلى هيجان مكبوتاته اللاشعورية.

علاقة الضمير بالذكريات:

وبعد هذه المقدمة التى حاولنا فيها أن نميط اللثام عن الذكريات ودورها فى سلوك المرء، فإن علينا أن نعرض للعلاقة بين الضمير وبين الذكريات، فنجد أن هذه العلاقة تتبدى فيما يلى:

أولاً - ذكــــريات الحب: فلقد يتذكر أحد الشبان المتزوجين، تلك الفتاة التى أحبها خلال مراهقته أو شبابه، وتوطدت بينهما العلاقات الحميمة، وتعاهدا على أن يحافظا على حبهما، وأن يعملا على تقويته واستدامته، مهما كانت الظروف، ومهما تربّصت بهما العقبات. ولكنه بالأسف خان حبيبته، واستبدل بحبه الأول حبًا آخر بعد أن مال قلبه إلى إحدى الشابات، لا لأنها أكثر جمالاً أو جاذبية من حبيبته الأولى، بل لأنها وفّرت له الإمكانات المادية التى جعلت إتمام الزواج بها أمرًا ميسورًا .ولكن ذكريات حبه الأول ما تزال تخيّم على ذاكرته من آن لآخر، كما أن ضميره يعاتبه، وينغّص عليه حياته، فيتهمه بأنه شخص خائن، ولابد أن تلك المسكينة التى عاهدته على الاستمرار فى التعلّق به إلى آخر نسمة من حياتها، قد صارت تكرهه وتحتقره، لأنه نسى أو تناسى ما قام بينهما من علاقات حميمة وعميقة، وقد فضّل عليها تلك الشابة التى تزوجها لا لشىء إلا لأنها غنية. فهو فى نظرها إذن شخص ليس له قلب، بل تغويه الماديات، وقد ضرب بالعواطف النبيلة عُرْض الحائط، فلا يعرف الإخلاص إلى قلبه سبيلاً.

ثانيًا - ذكريات الفشل: فلقد تكون الذكريات متصلة بالفشل فى الدراسة. من ذلك مثلاً أحد الموظفين بمخازن

إحدى المؤسسات الحكومية. كان قد التحق بعد حصوله على الثانوية العامة بكلية الحقوق، ولكنه كان غير مواظب على حضور المحاضرات، كما أنه كان يقضى الوقت مع مجموعة من أصدقاء السوء فى الملاهى والأندية الليلية، وكانت النتيجة هى تكرار رسوبه وأخيرًا فصله من كلية الحقوق. ومات أبوه الذى كان يعوله، فأشفق عليه أحد الجيران من أصحاب النفوذ، فسعى لتعيينه بتلك المؤسسة الحكومية. وهو الآن يئن تحت وطأة الغلاء، ولا يكاد يغطى نفقات معيشته هو وأسرته. إنه لا يكاد يحتمل الحياة، لأن ضميره يعذبه لأنه أضاع فرصة التعليم الجامعى من بين يديه، وقد كان بالإمكان أن يكون من مشاهير المحامين أو المستشارين، وبخاصة أنه كان من الطلبة اللامعين بالمرحلة الثانوية فى الخطابة والإنشاء، وأنه على مستوى مرتفع من الذكاء، والقدرة على التحصيل. ولكن ما الفائدة الآن من الندم على ما فلت من قبضته؟ بيد أن ضميره لا يتركه لحال سبيله، بل يضغط عليه بشدة لدرجة اليأس من الحياة.

ثالثًا – أول شَمَّة: رَبُّ أسرة من الموظفين، قُبِض عليه متلبِّسًا بجريمة الاتجار فى الهروين. وهو الآن وراء القضبان بعد أن أصدرت عليه المحكمة حكمًا بالسجن المؤبَّد، ففقد وظيفته وأسرته وأصدقاءه. إن ضميره يعذبه باستمرار، ويندم

لأنه انصاع لأحد أصدقاء المقهى الذى كان يتردد عليه كل ليلة. أغراه ذلك الصديق الخبيث بأن يأخذ شمَّة واحدة من لفافة أخرجها من جيبه وأعطاها له. فشعر بأنه يمتلك الدنيا بأسْرها بعد دقائق من تعاطيه لذلك المسحوق عن طريق الشم. وفى لقاء الليلة التالية مع صديقه الخبيث، طلب منه أن يناوله لفافة أخرى كتلك التى أسعدته كثيرًا بشمها فى الليلة السابقة، فرفض وقال له إنه يستطيع أن يحصل على ما يشاء من تلك اللفائف المنعشة، إذا وافق على ترويج الهروين معه بين أصدقاء المقهى وزملاء العمل، وبخاصة إنه سوف يربح من وراء هذه التجارة ملايين الجنيهات. فوافق وقابل التاجر الكبير، وصار من المروِّجين، ولكنه فوجئ بشرطة المخدرات تقبض عليه متلبِّسًا بإحراز الهروين والاتجار فيه، وكانت النتيجة هى الإلقاء به فى السجن المؤبد. إن الذكريات التى تُلِّحف عليه من ساعة إلى أخرى مصحوبة بوخز الضمير، لأنه لم ينهج الطريق المستقيم. وقد كان أحرى به أن يتقى الله، فلا يقبل الاقتراب من هذا الوباء الملعون، حتى لا تكون نهايته كئيبة كحاله الآن.

رابعًا - تفويت فرصة سانحة: شاب مثقف وموهوب فى الترجمة الفورية من الفرنسية إلى العربية، وقد ظهر نبوغه فى هذه الترجمة فى أثناء دراسته بكلية الألسن. لاحت له

فرصة سانحة للتقدم حثيثًا فى هذا المجال. عرض عليه أحد جيرانه وظيفة مغرية بإحدى السفارات الأجنبية بمرتب سخى، ولكن بشرط أن يتفرغ تمامًا ويستقيل من وظيفته كمدرس بعد أن يتم تعيينه بالسفارة الأجنبية مباشرة. طلب صاحبنا من جاره إعطاءه فرصة للتفكير والتوصُّل إلى قرار سوف يبلغه به. قال له جاره إن السفارة فى عجلة من أمرها، وهى لا تسمح بأكثر من أسبوع لكى يتسنى له خلاله التوصُّل إلى قرار حاسم. ولكن صاحبنا أخذ يتردد، ومضى شهر قرر بعده أن يقبل الوظيفة التى عرضها عليه جاره بالسفارة الأجنبية، وتوجه إليه، وأخبره بقراره، ولكن جاره أفاد بأن الفترة التى انتظره خلالها قد انقضت، وأنه قام بعرض الوظيفة على شاب آخر فقبلها واستلم بالفعل عمله بالسفارة. فما كان من صاحبنا إلا أن انصرف متحسِّرًا على ضياع هذه الفرصة السانحة. وما يزال ضميره يعذبه لأنه أضاع فرصة لا يمكن أن تواتيه مرة أخرى. ومرت على ذلك سنوات عديدة، ولكنه كلما تذكر تلك الواقعة المؤلمة، يتحسر ويعذبه ضميره.

خامسًا - بالإهمال ماتت زوجته وأولاده: كان أحد أصحاب المشروعات السياحية الكبيرة، يصطحب زوجته وأولاده الثلاثة فى سيارته إلى حيث قريته السياحية التى أنشأها بالشاطئ الشمالى. ولكن فى أثناء الرحلة أحس بأن

الفرامل خفيفة. فكان أمامه خيار من خيارين: إما أن يوقف سيارته ويترك زوجته وأولاده بها، ويركب أى مواصلة إلى أقرب ميكانيكى، ليعود به فيصلح الفرامل، وإما أن يستمر فى قيادتها إلى حيث يجد من يقوم بإصلاحها. وبالفعل اختار هذا القرار الأخير، واستمر فى قيادة السيارة. ولكن الفرامل كانت آخذة فى الضعف شيئًا فشيئًا إلى أن بطل مفعولها تمامًا. ففوجئ بسيارة شحن فى مواجهته، فداس على الفرامل التى بطل مفعولها، فلم تستجب، ومن ثَمَّ فإنه لم يتمكن من التوقف، واصطدمت سيارته بالشاحنة الضخمة، وكانت النتيجة موت زوجته وأولاده الثلاثة ونجاته هو شخصيًا، ولكن بعد أن أجريت له عملية جراحية فى السلسلة الفقارية. وهو الآن فى حالة ذهول وشلل نصفى. وكلما أفاق من ذهوله، فإن ضميره يهاجمه بغير هوادة، وهو يَعضّ بنان الندم، لأنه لم يتوقف بسيارته إلى أن يحضر الميكانيكى ويصلح فراملها، ولكن لا ينفع الندم بعد العدم.

ما وظائف الضمير بإزاء الذكريات؟

وعلينا بعد هذا أن نعرض لوظائف الضمير بإزاء الذكريات، فنجد أن تلك الوظائف يمكن أن تتحدد على النحو التالى:

أولاً – الوظيفة التوبيخية: فمن الواضح من الحالة الأخيرة التى عرضناها لتوِّنا، أن ضمير ذلك الرجل الذى فقد زوجته وأولاده الثلاثة بسبب عدم حكمته وتسرُّعه للوصول إلى قريته السياحية، يوبخه أشد التوبيخ، ويؤلمه أشد الألم. فالشعور بالخطأ سواء فى الفكر أم فى التصرف، يعرِّض المرء لتوبيخ ضميره له بعنف. ولكن شدة عنف توبيخ الضمير، تتوقف على مدى الخسائر التى يُمنّى بها المرء بسبب عزوفه عن الاختيار السليم.

ثانياً – الوظيفة التأديبية: فالطالب الذى يرسب فى الامتحان بسبب انصرافه عن الاستذكار والتئامه فى مجموعة من أصدقاء السوء، وقضاء الوقت الذى كان ينبغى استثماره فى الاستذكار، فى اللهو والعبث، فقام ضميره بتأنيبه، إنما يكون تأنيبه له بقصد تأديبه وإصلاح سلوكه، حتى يكون سلوكًا مستقيمًا فى المستقبل.

ثالثاً – الوظيفة التبصيرية: ولقد يعمل الضمير على تبصير المرء بالفرص السانحة قبل ضياعها. فلقد تكون مقاطعة أصدقاء السوء، وانتهاج طريق الاستقامة، نتيجة لصحوة الضمير. فكم من أشخاص أفادوا من التربية الذاتية التى كان الضمير هو العامل الأساسى فيها، لتقديم الخيار

الحكيم أمام المرء من بين الخيارات الكثيرة الضارة أو قليلة النفع. فالضمير لا يتوقف عند حدود التأنيب والعتاب فحسب، بل إن له وظيفة إيجابية تبصيرية بما يجب الانتحاء إليه، وعدم التفريط فيه. فالصراف الذى تراوده فكرة الاختلاس، ولكن ضميره يحذره من الإقدام على هذا التصرف الدنىء، فتكون نتيجة عدم إقدامه على الاختلاس، إحرازه ثقة صاحب المؤسسة التى يعمل بها، فيغدق عليه المكافآت، ويوليه ثقته الغالية. فضميره لم يحذره من الاختلاس فحسب، بل كان لوظيفة ضميره أيضًا ثمار طيبة فى اتساع مجال الرزق أمامه، ودعم سمعته الطيبة والمكانة المرموقة فى عمله.

رابعًا – الوظيفة الإلهامية: وفى ضوء تعريفنا للضمير بأن له وظيفة إيجابية إلى جانب وظيفته السلبية، فإننا نستطيع أن نقرر، أن الكثير من الأفكار الإلهامية تتأتى عن اعتمال الضمير فى القوام النفسى للمرء. ذلك أن ثالوث الشخصية متكامل بعضه مع بعض. فالفكر والوجدان والإرادة يتأتى عن تفاعلها بعضها مع بعض، قوام عام. فالضمير لا يمنع الأفكار الرديئة فحسب، ولا يحاسب المرء على ما تردّى فيه من أفكار رديئة فحسب، بل إنه يلهم المرء أيضًا بالأفكار الإبداعية. فكلما تلاشت الأفكار الرديئة من ذهن المرء، فإن الأفكار الجيدة تهبط عليه. وما يقال عن الفكر، ينسحب أيضًا بإزاء

الوجدان. فالواقع أن الوجدان عبارة عن خامة يمكن تصنيعها للخير، كما يمكن تصنيعها للشر. ولكن لابد من القيام بتصنيعها. وطالما أن الضمير يوجِّه المرء إلى ما هو لخيره، فإنه يقوم بتصنيع الوجدان بطريقة جيدة، فيحيله إلى عواطف نبيلة بنَّاءة. وكذا الحال بالنسبة للإرادة. فهى إما أن تتجه إلى السلوك الإيجابى البنَّاء، وإما أن تتجه إلى السلوك السلبى الهدَّام. والضمير الذى ينبِّه المرء ويحذِّره من التردى فى السلوك السلبىِ الهدام، يوجهه أيضًا إلى انتهاج السلوك الإيجابى البناء.

خامسًا – الوظيفة التنبؤية الإنقاذية: فالكثير من الأخطار الجسدية والأخطار المادية والأخطار الأدبية، يقوم الضمير بالتحذير من الوقوع فى مخالبها، أو التعرض لها. فليست وظيفة الضمير مقتصرة على الندم بعد التعرض للأخطار التى كان من الممكن تحاشيها، أو التخفف من أضرارها، بل إن له وظيفة تنبؤية أيضًا بما يمكن أن يتعرض له المرء من أخطار، فيحذره من التعرض لها، وإصابته بما لا تحمد مغبَّته منها.

* * *

الفصل الرابع

الضمير والمكبوتات اللاشعورية

أنواع متباينة من اللاشعور:

علينا أن نبدأ أولاً بإلقاء الضوء على مفهوم اللاشعور، حتى نكون على بيِّنة من الخلفية التى نناقش فى ضوئها علاقة الضمير بالمكبوتات اللاشعورية. فالزوايا الهامة التى يجب أن ننظر منها إلى اللاشعور سوف نقدمها على النحو التالى:

أولاً - اللاشعور البيولوجي: فجميع العمليات البيولوجية التى تبدأ منذ اللحظة الأولى التى يتكوَّن فيها الجنين فى بطن أمه، ومرورًا بمراحل عمره التالية حتى موته فى الشيخوخة أو قبلها، إنما توصف بأنها عمليات بيولوجية لاشعورية. من ذلك على سبيل المثال عملية الهدم والبناء Metabolism وعمليات هضم الطعام، والتعاون الذى يتم فيما بين التنفس ودقات القلب، بل وعمليات النمو التى بمقتضاها ينتقل المرء من

مرحلة عمرية إلى المرحلة العمرية التالية، إلى آخر العمليات البيولوجية التى لا يدركها وتحدث بطريقة لاشعورية.

ثانياً - اللاشعور الحركي: فالكثير من الحركات التى تستحيل إلى عادات، يأتيها المرء عَبّر مراحل عمره، وفى أثناء يقظته ونومه، تكون منخرطة فى إطار هذا اللاشعور الحركى. وكذا فإن ما يتم للمرء اكتسابه من حركات ومن مهارات حركية كالكتابة على الآلة الكاتبة أو على لوحة مفاتيح الكومبيوتر، أو العزف على مفاتيح البيانو أو على أوتار العود، وغير ذلك من مهارات حركية، إنما تعتبر حركات منخرطة فى نطاق اللاشعور الحركى. فالشعور فى قوام الفنان الذى يعزف على البيانو أو العود، وكذا المؤلف الذى يستخدم الآلة الكاتبة أو الكومبيوتر فى تدبيج مؤلفاته، يطفو على سطح اللاشعور الحركى، بمعنى أن هناك مستويين يعتملان فى نشاط الفنان أو المؤلف هما: مستوى اللاشعور الحركى، ومستوى الشعور الإبداعى، الذى يكون كل منهما بإزائه فى حالة وعى وسيطرة ذهنية على ما يؤديه أو يؤلفه.

ثالثاً - اللاشعور العقلانى: فالواقع أن ما يقوم المؤلف بإبداعه من فكر، لا يكون جميعه على مستوى الشعور والإدراك الواعى، بل إن استغراقه فى الكتابة، قد يحمله على الصدور فيما يقوم بإبداعه من نثر أو شعر أو قصة عن

لاشعوره. والواقع أن ما ينخرط فى نطاق الإلهام، إنما هو فى الواقع انبثاق من اللاشعور، بمعنى أن الإبداعات الإلهامية لا تتأتى للمبدع إلا إذا كان دالفًا فى نطاق اللاشعور العقلانى.

رابعًا - اللاشعور الوجدانى: فالعقد النفسية والمكبوتات الوجدانية التى لا يحس بها المرء وهو فى حال اليقظة، والتى تستخفى عنه فى حياته اليومية وعلاقاته بالآخرين، إنما تدخل فى نطاق اللاشعور الوجدانى. فالشخص الذى نقابله لأول مرة ونستشعر بإزائه الكراهية، تكون هناك فى الواقع مكبوتات لاشعورية وجدانية معتملة فى قوامنا، هى التى تحملنا على الشعور نحوه بالكراهية.

خامسًا - اللاشعور الجماعى: فثمة لاشعور يعتمل فى قوام كل مجموعة، سواء كانت مجموعة صغيرة، أم كانت مجموعة كبيرة. فلكل أمة لاشعورها، الذى يتضمن فى نطاقه الرواسب الخِبْرية التى ترسَّبت فى لاشعورها عبر آلاف السنين.

علاقة الضمير بالمكبوتات اللاشعورية:

وبعد أن استعرضنا هذه المعانى الخمسة للاشعور، فإن علينا أن نحاول إماطة اللثام عن علاقة الضمير بالمكبوتات اللاشعورية، فنجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلى:

أولاً - بالنسبة للأخطاء التي ترسَّبت في لاشعور الفرد أو المجموعة: فإن المكبوتات اللاشعورية، تفور من وقت لآخر، فى حالة احتجاج وندم، وذلك لأن الضمير يلعب بإزائها دور المعاتب أو الساخط أو المحتج على الفرد أو على المجموعة. ويتبدى الاحتجاج فى نطاق سلوك الفرد، سواء فى حال اليقظة أم فى حال النوم، أم فى ثنايا التصرفات التى تصدر عنه والتى يحكم عليها بأنها غير سوية، وفى بعض الحالات يكون الاحتجاج اللاشعورى الفردى بالإقدام على الانتحار، كما يكون الاحتجاج اللاشعورى الجمعى بالإقدام على الثورة والتحطيم والقتل الاعتباطى الجمعى. والشاهد على ذلك ما يحدث فى هذه الأيام فى الجزائر. فاللاشعور الجمعى هناك يعبِّر عن مكبوتاته اللاشعورية الجمعية، كاحتجاج على ما عاناه الشعب الجزائرى من الاحتلال الفرنسى، وعلى طمس معالم الحضارة العربية هناك، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في التعامل فى الحياة اليومية.

ثانياً - تصحيح المسار: فالضمير الفردى أو الضمير الجمعى، لا يقتصران على العتاب والاستياء والثورة، بل ينحو أيضًا إلى تنبيه الفرد أو الجماعة إلى ما يجب اتخاذه من خطوات وإجراءات لتعديل السياسة الشخصية أو السياسة الجمعية المتَّبعة، والعدول عن الخط السلوكى الخاطئ أو

المُزْرى، وإحلال محله خطًا جديدًا مناسبًا لتحقيق التقدم والتخلُّص من الرواسب اللاشعورية التى تفور من وقت لآخر معلنة السخط والاحتجاج.

ثالثًا - الثأر والانتقام: ومن الوظائف التى يضطلع بها الضمير بإزاء الرواسب اللاشعورية المُمِضة، التى يتبرَّم بها الفرد، أو تتبرَّم بها المجموعة، الأخذ بالثأر من المُتسبب فى إعاقة التقدم، أو فى النيل من الكرامة، أو فى الحط من قيمة المرء أو الجماعة، أو المتسبِّب فى الحرمان من الضروريات اللازمة لاستمرار الوجود، أو لتحقيق الرخاء وتبوؤ المكانة المرموقة بين الأتراب فى حالة الفرد، أو بين المجموعات الأخرى فى حالة الجماعات والشعوب والدول.

رابعًا - توفير الطاقة اللازمة لتحسين الحال: ومن الوظائف التى يضطلع بها الضمير فى حالة الفرد أو فى حالة المجموعة، توفير الطاقة النفسية اللازمة التى إذا ما بُذِلت، عندئذ يتسنى القضاء على أسباب التخلف، والتلحُّف بأسباب التقدُّم والارتقاء. فالكسول يَنْفُض عن نفسه غبار الكسل، والمهمل يشمِّر عن ساعد الجِد، والمتواكل يأخذ فى الاعتماد على نفسه لكى يَشُق طريقه إلى النجاح والمجد فى مستقبله القريب والبعيد، والضعيف يتذرع بأسباب القوة، والجاهل يتجه إلى ينابيع الحكمة يرتشف منها، والمهزوم يتصفح

أسباب هزيمته، لكى يقتلعها من جذورها، ويتسلَّح بأسلحة الانتصار وقهر الأعداء. إلى آخر تلك الوسائل التى تستخدم الطاقة النفسية بفروعها المتباينة، أعنى الطاقة العقلية والطاقة الوجدانية والطاقة الإرادية، فى التجهيز لها واستخدامها بمهارة وإتقان.

خامسًا - استشراف المستقبل: أخيرًا فإن الضمير الحى، لا يتقوقع فى لفائف ماضى المرء، أو فى لفائف ماضى المجموعة، بل إنه يأخذ فى اعتباره أضلاع الزمان الثلاثة، أعنى الماضى والحاضر والمستقبل. ذلك أن اقتصار الضمير على الأخذ بضلع واحد من هذه الأضلاع الثلاثة، أو على ضلعين فقط منها، وإهمال الضلع الثالث، لا يسمح له بأن يكون ضميرًا حيًا بمعنى الكلمة. فلكى يكون الضمير يقظًا ومفعمًا بالحيوية والنضارة، فلابد أن تكون لدى صاحبه القدرة على الإفادة من وقائع الماضى من جهة، والقدرة على توظيف إمكانات الحاضر من جهة ثانية، والقدرة على التخطيط لاستثمار ذخائر وكنوز المستقبل من جهة ثالثة. فالضمير اليَقِظ يحمل صاحبه على التخطيط للمستقبل قبل وقوعه، لأن التجهيز لما سوف يستجد من ظروف وأحوال، وما يحتمل أن يحمله ذلك المستقبل من إمكانات، شرط أساسى حتى يتسنى وصفه بأنه ضمير يَقظ ومفعم بالحيوية والطاقة المبشِّرة بالنجاح.

العوائق التى تعترض توظيف الضمير بطريقة جيدة:

وعلينا أن نذكر فيما يلى العوائق التى تَحُول دون توظيف الضمير بطريقة جيدة بإزاء المكبوتات اللاشعورية:

أولاً - هيمنة المكبوتات اللاشعورية على الشخصية: فالواقع أن المرء كثيرًا ما يكون غارقًا تمامًا فى لُجَّة تلك المكبوتات اللاشعورية، بحيث تكون مسيطرة على مقود شخصيته، وبالتالى فإنه يغرق حتى أذنيه فى مهاويها، ولا يستطيع منها فكاكًا. فيصاب عندئذ بالشلل الإرادى. وبالتالى فإن ضميره لا يستطيع أن يضطلع بجميع الوظائف التى عرضنا لها قبلاً، بل يقتصر على الوظيفة التأنيبية. ويكون شأنه شأن المصاب بالشلل الجسمى الذى ينخرط فى أحلام يقظة يدير خلالها مخيلته بصدد ما كان يتمنى الاضطلاع به من أعمال باهرة، لولا ذلك الشلل الذى يُعِيق حركته، ويَحُول بينه وبين تحقيق أمانيه، واعتمال إرادته فى مجالات الحياة المتباينة.

ثانيًا - الجهل بالإمكانات المتاحة: فالواقع أن الضمير إذا ما وجد الطريق المعرفى مسدودًا أمامه فإن صاحبه لا يستطيع أن يقف على الإمكانات الراهنة المتاحة، أو على الإمكانات التى سوف تكون متاحة فى المستقبل . فضميره مهما كان حيًا ويقظًا ، فإنه لا يستطيع أن يترسَّم ما يمكن أن

يلعبه من أدوار إيجابية فى المستقبل، بل ينحصر كل همه فى تصفُّح ما صدر عنه من أخطاء أو خطايا ، دون التفتُّح على إيجابيات الحياة، وما يمكن أن يقف عليه من أسرار النجاح ، وشق الطريق نحو مستقبل أفضل .

ثالثًا – الارتماء فى حمأة اليأس والقُنُوط : فلقد لا يستطيع الفرد أو المجموعة التسربل بسربال الأمل فى مستقبل أفضل ، بل يرتميان فى حمأة اليأس والقنوط . وتكون النتيجة هى الانتحار الأدبى، أو الانتحار المادى، أو الانتحار الجسدى . فالطالب الذى يعذبه ضميره لأنه أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، ولكنه يقف عند حد تعذيب نفسه، ولا يؤمل فى العثور على الوسائل التى يتسنى له بها إحلال وسائل النجاح والتفوق محل أسباب الفشل وخيبة الأمل، فإن ضميره فى هذه الحالة ، لا يكون متصفًا بالتكامل والتآزر.

رابعًا – عدم العثور على مفتاح النجاح : فلقد تتوافر جميع المقومات والظروف أمام صاحب الضمير الحى ، كما تتوافر أمامه جميع فرص نفض غبار الفشل ، والتلبُّس بالأمل فى التعويض عما فاته من نجاح ، ولكنه لا يوفق فى العثور على الوسائل الكفيلة بتخليصه من أسباب الفشل ، والتسلُّح بأسباب النجاح ، فتكون النتيجة المترتبة على ذلك ، هى

التوقُّف عند حدود عقاب الذات ، نتيجة اليأس من إحراز أى تقدم أو نجاح .

خامساً – التذبذب بين الإقدام والإدبار : أخيراً فإن الضمير قد يتقدم خطوة إلى الأمام ، ثم يتقهقر خطوة إلى الخلف . وبتعبير آخر فإن المرء قد يتَّشح بالضمير الحى والمتدفق حيوية، ثم يخبو وينخرط فى نعاس عميق. وبالتالى لا يتسنى له التقدم وإحراز النجاح فى الحياة ، أو التخلص من ضغوط تلك الركامات اللاشعورية الثائرة فى أعماقه ، فيظل على حاله من التوتر النفسى ، والتردِّى فى سلسلة متصلة من الانحرافات النفسية .

وسائل توظيف الضمير بطريقة فعَّالة :

وعلينا فى نهاية المطاف أن نستعرض الوسائل التى يتسنى بها توظيف الضمير بطريقة فعَّالة ومجدية بإزاء الرواسب اللاشعورية .

أولاً – النقد الذاتى : فلا شك أن الوقوف على نقاط الضعف بالشخصية ، هو نقطة البداية فى استكشاف المكبوتات اللاشعورية . فما يتردَّى فيه المرء من فشل برغم المحاولات التى يبذلها فى سبيل النجاح ، يعتبر شاهداً شبه مؤكَّد على أن ثمة رواسب لا شعورية معاكسة أو معوِّقة تحول بين المرء وبين إحراز النجاح .

ثانيًا – الاستبطان Inrtospection **للوقوف على الخبرات المكبوتة** : فمن يتدرَّب على الغوص فى أعماقه ، واستقراء أحواله النفسية ، وذلك بالعكوف عى الذات وممارسة الاعتكاف ، فإنه يستطيع أن يكتشف العوامل والظروف والمواقف التى أدت إلى حدوث تلك المكبوتات اللاشعورية فى أعماقه . وبهذه المناسبة فإننا نذكِّر بأن الطريق بين اللاشعور والشعور مفتوح ، وأن العلاقة بينهما هى علاقة تضاد ، كالعلاقة بين الغنى والفقر ، أو بين الصحة والمرض ، أو بين القوة والضعف ، أى أن ثمة تدرُّجًا وحالات بَيْنية كثيرة بين كل طرف من الطرفين المتضادين .

ثالثًا – جلسات التحليل النفسى : فعلى الرغم من أن معظم الناس لا يلجئون إلى الطبيب النفسى ، فإن من الضرورى إنعاش الوعى الشعبى بضرورة التخلُّص من المكبوتات اللاشعورية ، أو على الأقل التخفُّف من وطأتها عن طريق جلسات التحليل النفسى. فهذا هو الطريق المُفْضى إلى التمتع بالصحة النفسية. والمأمول أن يستيقظ الضمير الشعبى بوعى للانتحاء إلى هذا المَنْحى العلاجى، وبخاصة فى الحالات التى تتبدى فيها آثار تلك المكبوتات اللاشعورية فى الانحرافات السلوكية التى يمكن أن تصاب بها الشخصية .

* * *

الفصل الخامس

الضمير والقيَم الاجتماعية

معنى القيم الاجتماعية وأنواعها :

علينا أن نقوم أولاً بإلقاء الضوء على معنى القيم وأنواعها ، قبل أن نبحث فى العلاقة بينها وبين الضمير ، فنجد أنها تعنى وتتضمن ما يأتى :

أولاً – تحديد معايير معيّنة للسلوك : فالمجتمع الذى ينشأ فيه الفرد ، بدءًا بأسرته ، ثم بيئة الجيران ، ثم المدرسة بجميع مسمياتها ومستوياتها التعليمية ، ثم الحرفة أو المهنة التى يحترفها أو يمتهن بها ، تحدِّد له القواعد السلوكية التى يجب عليه أن يلتزم بها، ولا يتخطاها . والسلوك لا يتضمن البادى للعيان فى تصرفات ومواقف المرء فحَسْب ، بل يتضمن أيضًا السلوك الباطنى ، أعنى طريقة التفكير ، والعواطف التى تعتمل بدخيلته ، سواء كانت عواطف حب ووداد ، أم كانت عواطف كراهية ونبذ ، أم كانت إرادة أو طاقة إرادية ، سواء

كانت إرادة إيجابية تتمثل فى الإقدام على أداء سلوكى معيَّن ، أم كانت إرادة سلبية تَحُول بين المرء وبين الإقدام على تصرف ما . والقيم الاجتماعية ، وإن كانت تُوْلى اهتمامها الأكبر بالظاهر من السلوك ، فإنها لا تُغْفل أيضًا الباطن منه . ومن ثمَّ فإنها تهتم بتربية الناشئة بدءًا من دخيلة الفرد ، على أساس أن الظاهر من السلوك ، لا يعدو أن يكون ترجمة لما يعتمل بقوامه الداخلى من فكر وعاطفة وإرادة ، والمجتمع يستند فى قيمه على ما يقرره الدين ، وما ينحو إليه العرف والتقاليد الاجتماعية ، فيحدِّد ما هو خير وما هو شر ، وما هو مناسب وما هو غير مناسب ، وما هو مفيد وما هو ضار ، إلى آخر التقييمات التى يحدِّد فى ضوئها ما يجب على الناس مراعاته فى سلوكهم .

ثانيًا – الاهتمام بالتطوير والتقدُّم : ومن القيم الأساسية التى يهتم بها المجتمع ، تطوير الواقع لتقديم نتائج أفضل وبنفقات أقل ، وجعل الأداء فى وقت أقصر ، وأيضًا تطوير التكنولوجيات الموجودة ، واختراع تكنولوجيات جديدة ، تعمل على راحة الإنسان ورخائه .

ثالثًا – الانتماء وخدمة المؤسسات التى ينتمى إليها المرء: ومن القيم الأساسية التى يهتم بها المجتمع إحساس المرء

بالانتماء إلى المجتمع القومى ، وإلى بعض المجتمعات الفرعية التى يتضمنها ذلك المجتمع القومى ، والانتماء ليس مجرد إحساس بالمعيَّة ، بل هو أيضًا استعداد للبذل والتضحية والعطاء . فالشعور بالنحن يجب أن يتوافر عند المرء ، إلى جانب شعوره بالأنا . فالمطلوب من المرء أن يعتنى بنفسه كفرد من جهة ، وأن يعتنى بالمؤسسات الاجتماعية التى ينتمى إليها من جهة أخرى . (انظر كتابنا الانتماء وتكامل الشخصية) .

رابعًا – التمييز بين نوعين من القيم : فبعض القيم الاجتماعية تتَّسم بالإطلاق ، وبعضها الآخر يَتَّسم بالنسبية . وبالنسبة للقيم المطلقة ، فمنها القيم التى تتعلق بالمبادئ الدينية : كالإيمان بالله ويوم الحساب ، وقيمة الاستقامة والشرف . أما بالنسبة للقيم النسبية ، فمنها التذوقات الجمالية التى تختلف من شخص لآخر ، ومن جماعة إلى جماعة أخرى .

خامسًا – ضرورة ملاءمة القيم لظروف المرء أو المجموعة: فبعض القيم التى تناسب الطفل ، قد لا تناسب الشاب . والقيم التى تناسب الشاب ، قد لا تناسب الكهل ، والقيم التى تناسب الكهل قد لا تناسب الشيخ . والقيم التى تناسب الذكور قد لا تناسب الإناث . والقيم التى تناسب القرويين ،

قد لا تناسب أهل المدن . والقيم التى تناسب العلمانيين ، قد لا تناسب رجال الدين ، إلى آخر الفئات التى يمكن أن ينتمى إليها المرء . فالمهم أن يلتزم المرء بالقيم التى تناسب وضعه وظروفه الاجتماعية .

الأدوار التى يلعبها الضمير بإزاء القيم الاجتماعية :

وبعد أن قدمنا هذه الأنواع الخمسة من القيم ، فإن علينا أن نلقى الضوء على الأدوار التى يلعبها الضمير بإزاء القيم الاجتماعية فنجد أن هذه الأدوار يمكن أن تتحدد فيما يلى :

أولاً - الضمير الفردى يتكامل مع الضمير الجمعى :

فالواقع أن الضمير الفردى ، بمثابة انعكاس أو صدى للضمير الجمعى . ولكن الفرد لا ينتمى إلى مجتمع فرعى واحد ، بل ينتمى إلى مجتمعات فرعية كثيرة . ومن هنا فإن ضميره الفردى ، يعتبر محصلة تتشكّل من جميع تلك المجتمعات الفرعية التى ينتمى إليها ، ويتفاعل معها . وكلما كان الفرد متمتعًا بمجموعة كبيرة من الانتماءات لمجتمعات فرعية كثيرة، كان ضميره أكثر قوة ، وكانت محصلته الضميرية - إذا صح التعبير - أكثر خصوبة وتفتحًا . أما الشخص الذى تنكمش انتماءاته فى نطاق مجتمع فرعى واحد أو مجتمعين فرعيين

فحسب ، فإن ضميره الفردى يكون متقوقعا فى نطاق الضمير الخاص بذلك المجتمع الواحد ، أو فى نطاق الضميرين الخاصين بالمجتمعين الفرعيين اللذين ينتمى إليهما .

ثانيًا – الضمير الفردى مستمر فى التطور : فكلما كان الفرد أكثر مرونة وتطورًا ، بحيث يلائم بين آخر مستوى انتمائى بلغه ، وما يحدث من تطورات وتغيُّرات فى نطاق المجتمعات الفرعية التى ينتسب إليها وينتمى إليها ، فإنه يكون مستمرًا ودائبًا عى التطور بضميره الفردى . وبالمناسبة فإننا نود أن نقول إن الضمير ليس شيئًا كالقلب والرئتين والرأس، بل هو عبارة عن سلسلة من العمليات التى يضطلع بها المرء شعوريًا ولا شعوريًا . وبتعبير آخر فإنه يبنى مشاعره وتوجُّهاته التى يضطلع بها بوعى وشعور ، على خلفية من المقومات اللاشعورية المعتملة فى قوامه النفسى . ولكن لا يعنى هذا أن الفرد يكون كالحِرْباء التى تتلون مع ما يحيط بها من ألوان ، بل إنه مع تطور ضميره ، فإن ثمة ثوابت ، أو قل إن هناك مقومات ضميرية أكثر تطورًا من باقى المقومات الضميرية الأخرى . فبينما يكون التطور التى تنتحى إليه بعض مقوماته الضميرية سريعًا ، فإن التطور الذى تنتحى إليه بعض مقوماته الأخرى يكون بطيئًا ، أو لقد تكون بعض المقومات الضميرية غير قابلة للتطور على الإطلاق . فالقيم

التى يؤمن بها الفرد فيما يتعلق بالخير والشر ، قد تظل كما هى دون أن يعتريها أى تطور . ولكن هذا لا ينسحب بإزاء جميع الأشخاص . فثمة فروق فردية تتبدى من شخص لآخر بإزاء التطورات الضميرية .

ثالثاً - الأحداث المؤلمة أو المفرحة وتأثيرها فى القيم :

فالواقع أن بعض الأحداث المؤلمة أو المفرحة ، والتى يكون لها أثر فى شخصية المرء ، قد تتواكب معها تطورات عميقة فى الشخصية . فقد يُسقط المرء بعض قيمه التى كان يعتز بها ، من ذلك مثلاً الموظف الذى كان يعانى من ضيق ذات اليد ، وقد رقى إلى منصب حساس . فيُقبل عليه أصحاب المصالح يعرضون عليه الرشاوى . فهو قد تنهار لديه قيمة الأمانة ، ويضعف ضميره فى المقاومة فيقبل الرشاوى ، طمعًا فى أن يخرج من فئة المضغوطين بين فكى الغلاء ، والارتفاع إلى مستوى الموسرين . فذلك الموظف كان بين أمرين : إما أن يستولى الدائنون على عفش شقته ويبيعوه فى المزاد ، وذلك إذا أصر على أن يتمسك بمبدأ الشرف والأمانة ، حتى ولو تطلب ذلك تعرضه للهزء والسخرية من جيرانه وأقربائه ومعارفه ، عندما يشاهدون عفشه يباع فى المزاد ، وإما أن يغيِّر جلده ، ويُعَدِّل فى موقف وسياسة ضميره ، الذى كان يرفض أخذ أى رشوة من أى شخص .

رابعًا – تأثير الانتقال إلى مجتمع جديد : فالواقع أن المجتمعات القومية تتباين فيما بينها من مجتمع قومى إلى مجتمع قومى آخر . فالمصرى الذى هاجر إلى أمريكا أو إلى استراليا ، يجد نفسه بعد الإقامة فى المجهر قد تطوَّر بضميره ، ولم يَعُد يعاير الأمور بالمعايير نفسها التى كان يعايرها بها قبل انتقاله إلى المجتمع الجديد الذى تسود عليه معايير وقيم مباينة كثيرًا أو قليلا عن المعايير والقيم التى تشيع فى وطنه الأصلى .

خامسًا – تأثير الثقافة والتفتُّح: فكلما اتسعت ثقافة المرء، وذلك بزيادة معارفه والتعمق فيها ، وكذا باكتساب المهارات الحركية والاجتماعية ، بالإضافة إلى التذوقات الدينية والأخلاقية والجمالية ، فإنه يكون أكثر قابلية للتطور الضميرى ، والتطور الضميرى الذى نعنيه ، قد يكون للخير كما قد يكون للشر . فلقد يتطور ضمير الشخص المثقف بحيث يتسع فكره لفتوحات ثقافية مفيدة له ولمن يتعامل معهم، كما أنه قد يستثمر ثقافته للإضرار بالآخرين ، وخداعهم ، واستغلالهم ، أو الانحدار بهم إلى مهاوى الرذيلة .

أسباب الهبوط بالمعايير الضميرية بإزاء القيم الاجتماعية:

وعلينا أن نقوم فى نهاية المطاف باستعراض العوامل التى قد تعمل على الهبوط بمستوى المعايير الضميرية بإزاء

القيم الاجتماعية ، فنجد أن هذه العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً – الرغبة فى التكيف للمجتمع : فالكثير من الأشخاص الذين ينحدرون بضمائرهم إلى أسفل سافلين ، إنما يكون السبب فى انحدارهم ، وهبوطهم عن المستوى الضميرى الذى كانوا يتمتعون به ، هو رغبتهم فى التكيف للواقع الاجتماعى السيئ الذى انحدر إليه المجتمع الذى يحيون فى نطاقه ، ويتعاملون مع أفراده . خذ مثالاً لذلك الشخص الذى كان ينهج تبعًا لضميره الحى فى الذود عن المظلوم ومناصرته، والذى كان يتبع مبدأ التضحية من أجل المُعْوزين . إنه بعد أن لاحظ أنه موضع تهكم من جانب من يحيطون به فى مجتمع لا يؤمن إلا بالمصلحة الشخصية ، ويتنكر للتضحية ، وبعد أن لاحظ أن الأشخاص الذين دافع عنهم عندما شعر بأنهم كانوا مظلومين فى بعض المواقف والقضايا ، والأشخاص الذين كانوا محتاجين إلى مساعدته ، فسخى عليهم بماله ، قد صاروا يبدُّون له العداء ، ويطالبونه بالمزيد من عطائه ، وإلا فإنهم سوف يناصبونه العداء ، فما كان منه إلا أن فقد مبدأ كان يلتزم به ، ويعتز به ، ولم يَعُد ضميره يعذبه إذا لم يساعد من يحتاج إلى مساعدته ، أو نُصرّته ضد من يظلمونه .

ثانيًا – مغريات الحضارة : فالواقع أن الحضارة مفعمة بالمغريات الكثيرة التى قد تعمل على ميل كثير من أصحاب الضمائر الحساسة والحية ، إلى التنازل عن الكثير من مبادئهم السامية ، والجرى وراء بهرج الحضارة ومغرياتها . فالذى يعيش على الكفاف ، يرغب فى أن يكون مستورًا ، والمستور يرغب فى أن يتمتع بما يتمتع به الأغنياء . والغنى يرغب فى أن يصير من أصحاب الملايين . وصاحب الملايين يرغب فى أن يصير من أهل القمة الاقتصادية . وبتعبير آخر فإن مغريات الحضارة تعمل على لَىِّ رقاب كثير من الشرفاء ، وحملهم على التنازل عن المبادئ التى كانوا يتمسكون بها . وبتعبير آخر فإن الكثير من أصحاب المبادئ السامية ، صاروا يتذرعون بأى وسيلة يمكن أن تحقق لهم التمتع بما تزخر به الحضارة من مغريات.

ثالثًا – الرغبة فى الشهرة : فالكثير من أصحاب المبادئ والضمائر الحية ، قد أصغوا إلى نصائح بعض الخبثاء ، بأن من يرغب فى أن يطفو على السطح ، وأن يكون من بين من يشار إليهم بالبنان ، فإن عليه أن يطأطئ الرأس ، وأن يستعين بالوسائل التى تسمح له بأن ينخرط فى صفوف المشهورين . فالطريق إلى ذيوع الصيت له ثمن يجب أن يُدفع ، قد يكون الرشاوى أو الهدايا ، أو قد يتمثَّل فى تقديم الخدمات وتبادلها

مع من بيدهم الحل والربط فى رفع اسم ذلك المغمور ، إلى أعلى عليين ، ودَرّج اسمه بين أسماء العباقرة الأفذاذ ، وعلى هذا فإن صاحب المبدأ يأخذ بالنصيحة الدنيئة ، حتى يحظى بالشهرة ، سواء نجح فى التوصلّ إليها بالفعل ، أم ظل فى الظل بعيدًا عن الأضواء .

رابعًا – الإغراءات الجنسية : ومن العوامل التى قد تعمل على الهبوط بمستوى ضمير المرء ، خضوعه للإغراءات الجنسية . فالفاتنات قد لعبن ، وما يزلن يلعبن ، وسوف يستمر تأثيرهن عميقًا فى قلوب الرجال . بيد أن الرجال يختلفون بعضهم عن بعض بإزاء الإغراءات الجنسية . فمنهم من يتنازلون عن مبادئهم ، ويخالفون ضمائرهم ، ويخونون من وثقوا فيهم من كبار المسؤولين بالدولة ، وقد منحوهم سلطات كبيرة . فالفضائح التى تنشر على الملأ خاصة بالاستمالات التى قامت بها بعض الفاتنات لبعض المسؤولين فى المناصب الحساسة معروفة، وتنشر من وقت لآخر على صفحات الجرائد والمجلات .

* * *

الفصل السادس

الضمير بين صلابة المبدأ ومرونة الواقع

الإطلاقيون والنسبيون :

ينقسم الناس جميعًا عَبْر المكان والزمان ، إلى فئتين لا ثالثة لهما : فئة الإطلاقيين ، وفئة النسبيين . والإطلاقيون يتناولون حياتهم من زاوية الحق والباطل ، أى أنهم تيذرَّعون بالمبادئ الإطلاقية التى لا تعرف التوسُّط . فالخير خير والشر شر ، ولا توجد حالات بينيَّة فيما بين الخير والشر . وبغض النظر عن النتائج التى تتأتى عن الاستمساك بالمبدأ الأخلاقى المطلق ، فإن من الواجب حسب معتقد هذه الفئة الإطلاقية، أن على المرء أن ينحاز انحيازًا تامًا وبشكل غير منقوص إلى الخير ، كما عليه أن ينبذ الشر نبذًا تامًا وبلا هوادة . فكما أن ١ + ١ = ٢ ولا إجابة أخرى صحيحة غير ٢ ، كذا فإن الخير واحد ومُطْلق . فمثلاً بالنسبة للصدق والكذب ، فإن الكلام إما أن يكون مُتصفًا بالصدق ، وإما أن يكون متَّصفًا

بالكذب ، ولا يوجد صدق سلوكى ، أو كذب أبيض . فالصدق خير فى كل مكان وفى كل زمان ، والكذب شر فى كل مكان وفى كل زمان . ويجب الإغضاء عن النتائج الضارة التى يمكن أن تترتب على قول الصدق ، سواء كانت الأضرار منصبّةً على المتكلم نفسه ، أم على غيره ، وبغض النظر عن المكاسب التى يمكن أن تترتّب على قول الكذب ، سواء كانت تلك المكاسب راجعة إلى المتكلم نفسه أم إلى غيره .

أما فئة النسبيين ، فإنهم يتخذون موقفًا معارضًا معارضة تامة لموقف الإطلاقيين . فهم يعتبرون أن السلوك ، بما فيه السلوك التعبيرى المُفصح عن الأفكار أو المعانى أو الرغبات أو الإرادات ، لا يعدو أن يكون وسيلة أو أداة ، يجب استخدامها بمهارة وبطريقة ملائمة لكل موقف يوجد به المرء، بقصد التوصُّل إلى أحسن النتائج الممكنة . فالمقصود بالسلوك الذى يصدر عن الفرد، هو التعامل بنجاح مع الواقع الاجتماعى. أما أن يسجن المرء نفسه فى نطاق بعض المبادئ، ويُخْضع نفسه لها ، وفى الوقت نفسه يعمَى عن الواقع الخارجى، وما يؤدى إليه كلامه من أضرار أو إلى سوء علاقات مع الناس من حوله، أو إلى ثلم لمشاعرهم أو إلى تثبيط هممهم ، فإنه يكون قد فشل فى استخدام الوسيلة أو الأداة الكلامية التعبيرية .

وواضح - كما يقول النسبيون - أن المتمسك بالمبادئ دون أن يأخذ النتائج التى يمكن أن تترتب على الاستمساك بتلك المبادئ فى اعتباره ، إنما هو شخص ينحو إلى الثبوتية السلوكية . فهو لا يسمح لشخصيته بالنمو والتطور ، ولا يهيئ لها المناخ المناسب لتحقيق التوافق مع مقتضيات الأحوال ، والتماشى مع إيقاع التدفقات الاجتماعية والحضارية التى يمر بها المجتمع ، أو يتقدم نحوها . فهو شخص يظل قابعًا بعيدًا عن مُجْريات الأمور ، وعما تؤول إليه التطورات الاجتماعية والحضارية . وطالما أن الكلام عبارة عن عمليات اتصال بين المرء وبين الآخرين ، وطالما أن الناس من حوله يتطوَّرون تمشيًا مع التطورات الاجتماعية ، التى لا تقف عند حد لا تتقدم بَعْده ، فإن الثبوتى أو الشخص الذى يتمسك بالمبادئ الجامدة وقد أغمض عينيه وعقله وقلبه عن الواقع المتطور ، لا يستطيع أن يحقِّق نجاحًا فى حياته ، وذلك لأنه متخلِّف عن الركب الاجتماعى ، وقابع فى قمقم المبادئ المطلقة .

وواضح من عرضنا السريع للاتجاهين الأساسين فيما يتعلق بالصدق والكذب ، أن جميع أنحاء السلوك تخضع إما للإطلاق وإما للنسبية ، فالشخص الذى يتمسَّك بالمبادئ المطلقة ، إما أن يعتقد أنه نقىٌ نقاءً تامًا، وكاملاً بشكل مطلق، وإما أن يعتقد أنه ملوَّث بالشرور ، بغض النظر عن كمية الشر

التى لصقت بشخصيته . فالبقعة الواحدة تلوث الرداء كله ، والخطأ أو الخطيئة الواحدة ، تهبط به حسب منطق معتقده الإطلاقى ، من أعلى علِّيين إلى أسفل سافلين . فمن يخطئ أى خطأ ولو كان خطأ تافهًا ، وحتى عن سهو من جانبه ، فقد صار شريرًا . فالإطلاق لا يشمل الكلام فحسب، بل يشمل كل مناحى السلوك .

مبدأ المحاولة والخطأ :

ولكن الشخص النسبى ، لا يقول بذلك ، بل يعتقد أن مبدأ المحاولة والخطأ ، والتحسُّن التدريجى النسبى ، هو الخليق بالاعتبار . فأفضل الفضلاء لا يستطيع أن يكون سلوكه نقيًّا نقاءً تامًا ، وخاليًا من أى عيب ، والشأن هنا كالشأن بالنسبة للصحة . فأصح الأصحاء تكون صحته مَشُوبة ببعض الانحراف عن الصحة المطلقة. والشأن هنا أيضًا كالشأن بالنسبة للعلم . فأعلم العلماء يجهل بعض الأمور. وشأنه كشأن الغنِى. فأغنى الأغنياء، يجد من هو أغنى منه، أو أن الطريق إلى زيادة ثروته يظل مفتوحًا أمامه باستمرار، وليست هناك نهاية تقف عندها ثروته المتضخمة .

ما ينافح به صاحب الضمير الإطلاقى عن موقفه :

وصاحب الضمير الإطلاقى ينافح عن موقفه المبدئى بمجموعة من البراهين التى نقدمها فيما يلى :

أولاً – الحماس لبلوغ الكمال : إن من يطلب الكمال لا يبلغه تمامًا ، ولكنه يقترب من فحسب . فلكى يتسنى للمرء أن يقترب من الكمال ، يجب أن يترسَّم مثلاً أعلى كاملاً ، وليس مثلاً أعلى به بعض العيوب أو النقائص . أما من يأخذ بالمنهج النسبى ، فإنه لا يترسم مثلاً أعلى ، بل يُفَصِّل سلوكه على مقاس مقتضيات الواقع . فهو إذن كالحرباء التى تتلون بما يحيط بها من ألوان ، وتحصر نفسها فى الواقع الراهن ، دون أن تتطلَّع إلى المستقبل المأمول .

ثانيًا – الشعور بالنقص حافز على التقدم المستمر : فالواقع أن شعور المرء بأنه ، لم يبلغ الكمال ، وأن أمامه شوطًا بعيد المدى ، لكى يقترب منه ، إنما يشكِّل حافزًا سلوكيًا لديه، يدفع به إلى الأمام بالمحاولات الدائبة للتخلص من الأخطاء السلوكية التى شابت شخصيته ، ولاكتساب الصفات الجيدة التى تؤهِّله للتقدم فى مسار الفضائل وانتهاج السلوك الخالى من الشوائب نسبيًا .

ثالثًا – ليس هناك معيار نسبى محدَّد : فمن يأخذ بالنسبية فإنه يتناول الواقع الراهن ، ولا يتأمل مثلاً أعلى مطلقًا يحاول الاقتراب منه ، أو الأخذ عنه . فالنسبيون يرضون عن واقعهم ، ويكتفون بما هم عليه من مستويات

سلوكية. وبذا فإنهم محرومون من اقتفاء أثر مثل عليا سلوكية، يحاولون الاقتداء بها ، والاقتراب من مستواها ، أما الإطلاقيون فإنهم لا يرضون عن واقعهم السلوكى ، ويجدون أمامهم المثل الأعلى الخليق بالاقتفاء والتأسِّى به .

رابعاً – تصفُّح ما أنجز بالفعل وما يجب إنجازه مستقبلاً : فمادام هناك مثل أعلى يرجى بلوغه أو التأسِّى بسلوكه ، فإن الشخص الإطلاقى ، يعمِد إلى مقارنة سلوكه بسلوك ذلك المثل الأعلى الإطلاقى ،.ثم يقارن ما قطعه فى طريق الكمال ، بما يجب عليه أن يقطعه فى مشواره نحو بلوغ ذلك المستوى الأخلاقى الإطلاقى .

خامساً – عدم خلط الحابل بالنابل : فبالنسبة للشخص الذى يأخذ بالنسبية ، فإنه يخلط الأخيار بالأشرار ، أوبتعبير آخر فإن جميع الناس فى نظره أخيار ، كما أن جميع الناس فى نظره أشرار . ولكن بالنسبة للإطلاقيين ، فإن الناس ينقسمون إلى فئتين لا ثالثة لهما ، هما فئة الأخيار من جهة ، وفئة الأشرار من جهة أخرى . والواقع أن البشرية منذ القدم وهى تأخذ بالثنائية فى تقييم الناس ، بل إنها تأخذ بالثنائية فى جميع تقييماتها ، فنقول هناك نهار وليل ، ونَغُض النظر عن الحالات البينية الواقعة فيما بينهما . ونقول أسود

وأبيض، ونغض النظر عن الألوان التى تقع بين السواد والبياض . وكذا فإننا نقول الشىء نفسه عن الصحة والمرض ، وعن القوة والضعف ، وعن جميع الثنائيات ، غاضين النظر عن الحالات التى تقع بين طرفى كل ثنائية من الثنائيات التى نعرض لها بالحديث أو بالتفكير أو بالتقييم .

ما ينافح به صاحب الضمير النسبى عن موقفه :

بيد أن الشخص صاحب الضمير النسبى لا يسكت أو يقتنع بما ذكره صاحب الضمير المطلق ، بل يدلى هو الآخر بحججه لدعم موقفه النسبى فيذكر الحجج التالية :

أولاً - التفاؤل بدلاً من التشاؤم : فصاحب الضمير النسبى، يتهم صاحب الضمير المطلق بأنه شخصية متشائمة. فهو دائب على الشعور بالنقص . فمهما أحرز من تقدم فى طريق الفضيلة، فإنه يحس فى قرارة نفسه بنقائصه وأخطائه. أما صاحب الضمير النسبى، فإنه يحس بأن الحياة كلها محاولات وأخطاء ، وأن التدريب وليس التعليم ، هو الطريق العملى والناجع فى تنشئة الصغار ، وفى تقويم سلوك الكبار. فكما أن من يرغب فى التدرب على العوم ، لابد أن يأتى فى محاولاته الأولى بحركات عشوائية خاطئة فى أثناء تدرّبه ، ثم يأخذ فى التخلّص منها شيئًا فشيئًا ، ويُحِل محلها حركات

سليمة ، كذا الحال بالنسبة لصاحب الضمير النسبى . إنه يعترف بوجود أخطاء فى سلوكه ، ولكن مع الانتظام على التدريبات السلوكية ، فإنه يتفاءل بإمكان التخلُّص منها ، وإحلال ما هو صواب وجيد وسَوِى محلها .

ثانيًا – التشبث بالواقع وليس بالخيال : ففى رأى صاحب الضمير النسبى ، أن طريقة تناول السلوك من زاوية واقعية ، هو الخليق بالاتباع ، أما المنهج المطلق ، فإنه منهج خيالى . فالشخص الإطلاقى يدير خياله فى الفضائل الإطلاقية ، ولكنه حتى إذا هو تحمس لتحقيقها فى قوام شخصيته ، فإنه لا يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . فثمة فرق جوهرى بين الفكر والخيال والحماس الأجوف للتخلُّص من الأخطاء والخطايا من جهة ، وبين الممارسة العملية والتدريبات السلوكية الواقعية التى تتناول الأداء والإرادة من جهة أخرى . فبدءًا بالإرادة وليس بالفكر والأمانى والحماس ، يتحقق التقدم فى مسيرة السلوك . فكم من متحمس يرغب فى أن يكون فاضلاً ولكنه لا يدرِّب نفسه على الأداء السلوكى الفاضل ، فلا يبوء إلا بالفشل فى مسيرته الأخلاقية !

ثالثًا – الفروق الفردية والفروق الجماعية : وصاحب الضمير النسبى يؤكد أن ثمة فروقًا فردية بعيدة المدى من

جهة ، وفروقًا أخرى اجتماعية بعيدة المدى أيضًا تتبدى بين المجتمعات المختلفة من جهة أخرى ، تحتِّم علينا ألا نصب الأفراد والجماعات جميعًا فى قوالب سلوكية معدَّة لهم من قَبْل ، دون أن نأخذ فى اعتبارنا تلك الفروق الفردية والفروق الجماعية فى الاعتبار . فما يصلح أو يناسب شخصًا ما ، قد لا يناسب شخصًا آخر . وما يناسب مجتمعًا ما ، قد لا يناسب مجتمعًا آخر . وأكثر من هذا ، فإن ما يناسب الشخص الواحد فى مرحلة عمرية معيَّنة وفى ظل ظروف معينة ، قد لا يناسبه فى مرحلة عمرية تالية أو فى ظل ظروف معينة أخرى . وما يناسب مجتمعًا ما ، فى ظل ظروف معينة ، قد لايناسبه بعد تغيُّر تلك الظروف ، واكتنافه بظروف أخرى مغايرة . وعلى هذا فإن صاحب الضمير النسبى ينعَى على صاحب الضمير المطلق ، لأنه يحاول صب الناس جميعًا والمجتمعات جميعًا فى قالب سلوكى واحد ، أو إجبارهم على التأسِّى بمثلٍ أعلى واحد ، هو ذلك المثل الأعلى المطلق ، الذى يتأبَّى عن الهبوط إلى أرض الواقع ، بل يظل معلقًا فى فراغ ، بعيدًا عن متناول الناس ، وعن قدراتهم الأخلاقية ، فيظل بعيدًا عنهم ، مهما حاولوا الاقتراب منه . فكلما اقتربوا منه قليلاً ، بَعُد عن متناولهم كثيرًا . فيظلون مدعُوسين بالنقص والخطأ ، ويظل هو أعلى وأسمى من أن يدركوه، أو حتى الاقتراب منه .

رابعًا – السلوك الفردى صدى للسلوك الجمعى : فبينما يعتقد صاحب الضمير الإطلاقى أنه بفرديته قيِّم على المجتمع، بل إنه يكون فى كثير من الأحيان والمواقف ، متَّخذًا موقف المتنابذ مع المجتمع الذى نشأ به ورعاه ورباه ويحميه من الأخطار ، فإن صاحب الضمير النسبى ، يعترف بأنه عبارة عن صدى للمجتمع ، أو أنه إفراز من إفرازاته . فكلما كان الفرد بارًا بأبيه المجتمع ، ومتلاحمًا معه ، ومتطورًا بشخصيته مع التطورات التى تحدث فى قوامه ، فإنه يكون بذلك فاضلاً . ولكن المجتمع القومى يضم فى رحابه مجتمعات فرعية كثيرة . فعلى المرء إذن أن يختار من بين تلك المجتمعات ، أكثرها انسجامًا مع استعداداته وميوله ومواهبه ، ويجعل منه رائدًا ومرشدًا له فى حياته ، فينسجم معه ، ويتطور مع التطورات التى تحدث فى قوامه.

خامسًا – التفاعلات المستمرة بين الفرد والمجتمع: بيد أن ما قلناه فى البند السابق، لا يعنى أن الفرد لا يكون باستمرار سوى صدى للمجتمع أو للمجتمعات الفردية التى ينتمى إليها فى المجتمع القومى . فالواقع أن هناك تفاعلات تبادلية بين الأفراد ومجتمعاتهم الفرعية التى ينتمون إليها . ولكن ليس جميع الأفراد على المستوى نفسه من القدرة على التأثير فى تلك المجتمعات الفرعية ، بل هناك أفراد نُبهَاء مؤثِّرون من

جـهــة، وهناك أفــراد هـامــشـيــون لا هَمَّ لهم سـوى التـوافق مع الموجود والمحيط بهم ، والذى لفَّهم فى لفائفه من جهة أخرى . إذن فالمسألة نسبية وتختلف من فرد لآخر . فصاحب الضمير النسبى يؤكد أن ضميره فى حِدَّته ونضارته ، يكون متمشيًا مع مـا أُهِّل به من اسـتـعـدادات وقـدرات ومـواهـب يـتـسنـى له التأثير بواسطتها فى المجتمعات الفرعية التى ينتمى إليها ، أو لقد يسعده الحظ ، فيكون تأثيره شاملاً لمجتمعه القومى كله، بل وقد يتخطاه إلى مجتمعات قومية أخرى أيضًا .

* * *

الفصل السابع

الضمير والميل للانتحار

غريزة البقاء وغريزة الموت:

هناك غريزتان متضادتان تعتملان فى قوام الإنسان، هما غريزة البقاء، وغريزة الموت. ولدى الشخصيات السوية، وفى الحالات الطبيعية، التى توفر للمرء التمتُّع بالصحة النفسية الجيدة، فإن غريزة البقاء، تكون لها الغلبة على غريزة الموت. ولكن هذا لا يعنى أن غريزة الموت تختفى فى هذه الحالة تمامًا من قوامه النفسى، بل يعنى أنها تظل مقهورة، ومنتحية جانبًا تختفى فيه، إلى أن تحين لها الفرصة للبزوغ على مسرح سلوك المرء. ومن أهم الفرص التى يمكن أن تتاح لغريزة الموت للبزوغ والإطلال برأسها، أو حتى لسيطرتها وقهرها لغريزة الحياة، سيطرة الميل لدى المرء إلى الانتحار.

هناك أنواع مختلفة من الانتحار:

وهناك فى الواقع أنواع متباينة من الانتحار، لعلنا نقوم

باستعراضها فيما يلى، قبل أن نحاول الكشف عن موقف الضمير منه. والأنواع هى:

أولاً - الانتحار البيولوجي: وهو ما يَرِد إلى الأذهان عندما يذكر الانتحار من خلال الألسنة والأقلام. فالشخص المنتحر بيولوجيًا، يُقْدم على إنهاء حياته بيديه، بطريقة أو بأخرى، فلا يظل على قيد الحياة. فبدلاً من انتظار الموت حتى يهبط عليه، فيقضى نحبه، فإنه يسارع نحوه، ويرتمى فى أحضانه، ويُنهى حياته بإرادته، وبوعى من جانبه، مفضّلاً الموت على الاستمرار على قيد الحياة.

ثانيًا - الانتحار الاقتصادى: وهذ النوع من الانتحار، يتمثل فى إقدام المرء على مصدر رزقه، فيفسده بيده. فالتاجر الذى ينتحر اقتصاديًا، قد يشعل النار فى متجره. والموظف الذى ينتحر اقتصاديًا، قد يقدِّم استقالته من وظيفته، دون أن يكون قد عثر على عمل آخر يرتزق منه، أو على وظيفة أخرى يلتحق بها.

ثالثًا - الانتحار الأسرى: فالزوج الذى يطلِّق زوجته فى لحظة غضب وهياج، يكون بهذا التصرف الانفعالى الأهوج، قد انتحر أسريًا، وذلك لأنه بعد طلاق زوجته يترك البيت، ويتسكَّع على المقاهى أو الفنادق، أو حتى لقد يبيت على

الرصيف. وكذا فإن الزوجة التى تهرب مع عشيقها تاركة زوجها وأولادها، تكون قد انتحرت أسريًا.

رابعًا - الانتحار الأخلاقي: فالطالب الذى يرسب فى الامتحان، ويفشل فى دراسته، ولكنه بدلاً من أن يبحث عن أسباب فشله، ويشق طريقه من جديد ولو بتغيير نوع الدراسة، أو بالالتحاق بعمل حر، أو حتى بالهجرة أو العمل فى قطر عربى، فإنه يأخذ فى تعاطى المخدرات أو معاقرة الخمر، فيكون بهذا قد انتحر أخلاقيًا.

خامسًا - الانتحار السياسي: فرجل السياسة الذى يحتل مكانة رفيعة فى الأوساط السياسية، وإذ برجال المخابرات يضبطونه، وهو يخطط أو يتآمر مع دولة أجنبية لقلب نظام الحكم، فيقبضون عليه ويسوقونه إلى المحاكمة العسكرية، إنما يكون بفعلته الشائنة، وخيانته لوطنه، قد انتحر سياسيًا.

علاقة الضمير بالانتحار:

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من الانتحار، فإن علينا أن نلقى الضوء على علاقة الضمير بالانتحار، فنجد أن هذه العلاقة تتمثل فيما يلى:

أولاً - الحكم بالإعدام: فالضمير كالقاضى الذى يُصدّر حكمه على بعض المتهمين بالإعدام، ولكن الضمير القاضى،

يختار الطريقة التى يتم الإعدام بواسطتها. فهو قد يصدر الحكم بالإعدام الانتحارى عن طريق الانتحار البيولوجى، أو عن طريق الانتحار الاقتصادى، أو عن طريق الانتحار الأسرى، أو عن طريق الانتحار الأخلاقى، أو عن طريق الانتحار السياسى.

ثانيًا - التهديد بالإعدام: ولكن الضمير قد يتخذ موقف المهدِّد أو المحذِّر من مغبة الاندفاع فى الطرق الوعرة، أو الطرق المسدودة، أو الطرق التى وضعت بها الألغام. فهو لا يُصْدر حكمًا بالإعدام، بل يهدِّد فحسب، بأن المرء الذى لا يَرْعوى، ولا يأخذ حِذره من الانحدار إلى المهاوى التى لا مَخْرج منها، فإن جزاءه سوف يكون الحكم عليه بالإعدام الانتحارى. وقد يَلْقى هذا التهديد بالإعدام الانتحارى استجابة من جانب من يُوَجِّه إليه، فينتحى إلى الوسائل التى تصلح من أحواله، ولكنه قد يسد أذنيه، فلا يرعوى، ويكون مصيره هو الإعدام الانتحارى الذى يصدره عليه ضميره، وقد يئس منه ومن عدم فاعلية تهديداته التحذيرية فى قوامه السلوكى.

ثالثًا - الانتقام قبل الانتحار: فلقد ينحو الضمير إلى تأليب المرء على المتسببين فى الموقف الحرج الذى انتهى إليه، أو على من سدُّوا أمامه أبواب الرجاء، ويحُضُّه على أن ينتقم

منهم، فهو لا يقتصر على إصدار الحكم بالإعدام الانتحارى على صاحبه الذى يعتمل فى قوامه النفسى، بل يحكم أيضًا على المتسببين فى ذلك الإعدام الانتحارى. فقبل أن يُقْدم الشخص على الانتحار البيولوجى، فإنه يقتل شخصًا أو أكثر من المتسببين فيما انتهى إليه حاله، وحَمَلَه على الإقدام على الانتحار البيولوجى، أو على الانتحار الاقتصادى، أو على الانتحار الأسرى، أو على الانتحار الأخلاقى، أو على الانتحار السياسى. وقد يكون الانتقام الذى يدبِّر له ضمير المرء المُقْدم على الانتحار، من نوع الانتحار الذى يُقْدم عليه، فيكون انتقامًا اقتصاديًا أو أسْريًا، أو أخلاقيًا، أو سياسيًا.

رابعًا – النُصْح بالتعقُّل وتأجيل الانتحار: فلقد يتخذ ضمير المرء الموقف الحكيم، ويأخذ فى توجيه النصح إلى المرء، حتى يتدارس الموقف بعناية، فإذا هو اتبع النصيحة، فالأغلب أنه سوف يكتشف أكثر من حل لمشكلاته التى تدفع به إلى التفكير فى الانتحار، فيتخلص بذلك مما ران عليه من يأس، ويتجَلْبب بجلباب الرجاء فى مستقبل أفضل من حاضره وماضيه جميعًا.

خامسًا – النصح بتلقى المشورة من أصحاب الخبرة المخلصين: ولقد يعمِد ضمير المرء إلى تبصيره بضرورة اللجوء إلى أصحاب المشورة الصالحة والحكيمة، فلسوف يجد لديهم

الحلول الناجعة لمشكلاته، أو قد يوفِّروا له الوسائل العملية التى يتسنى بها الخروج من المأزق الذى ارتمى فى حمأته. ويكون الضمير فى هذه الحالة هاديًا للمرء الذى يميل إلى الانتحار، فيتنحى عن هذا الميل الانتحارى، ويتلبَّس بميل إيجابى، ويتخذ الخطوات التى تجعل حياته مبشِّرة بالخير، فيُقْلِع تمامًا عن فكرة الانتحار.

الأسباب التى تؤدى إلى شلل الضمير:

ولكن ضمير المرء قد يصاب بالشلل، فلا يستطيع أن يقوم بتوجيهه، سواء إلى طريق الخير أم إلى طريق الشر، وتكون هناك مجموعة من الأسباب التى تؤدى إلى إصابة الضمير بالشلل، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى:

أولاً - **العجز عن التفكير**: فلقد يصاب المرء صاحب المشكلات المستعصية بالعجز التام عن التفكير فى مشكلاته. فهو يجد لديه ميلاً إلى الانتحار، ولكنه لا يقف على أسباب ذلك الميل الانتحارى. فلقد يكون قد فقد ذاكرته، فينسى ماضيه، بل لقد ينسى المهنة أو الحرفة التى يشتغل بها، كما قد ينسى أسماء أقربائه وأصدقائه وأعدائه وكل من اعتاد على التعامل معهم قبل إصابته بالعجز الذهنى. وبالتالى فإنه لا يذكر شيئًا عن المأزق الذى ينحو به إلى الميل إلى الانتحار. فهو يحس به وجدانيًا، ولكنه لا يقف عليه عقلانيًا.

ثانيًا - البلادة الوجدانية الانفعالية: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، تلك البلادة الوجدانية الانفعالية التى تجعل المرء عاجزًا عن أن يستثار عاطفيًا أو انفعاليًا. فهو يكون فى موقف من لا يحب ولا يكره، أو فى موقف من لا يفرح أو يتضايق، أو فى موقف من لا ينفعل بطريقة أو بأخرى.

ثالثًا - الجمود الإرادى: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، تلك الحالة التى تكون فيها الإرادة متوقفة عن العمل، سواء بالإقدام أم بالإدبار. فالشخص المصاب بالجمود الإرادى، حتى إذا استطاع أن يكتشف الوسيلة التى قد تمكّنه من الخروج من المأزق الذى يوجد به، فيجعله ميالاً إلى الانتحار، فإنه يجد نفسه عاجزًا عن إحالة ما يجول بخاطره من أفكار إلى واقع مؤدّى بالفعل بواسطة الإرادة.

رابعًا - العجز عن استشراف المستقبل: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، عجز المرء عن النظر إلى الأمام، بل يكون محصورًا فى نطاقه الداخلى، وأيضًا عدم الوقوف على الظروف المحيطة به، وما يُتَوقع توافره من إمكانات فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد، وبالتالى التوقف عن التفكير والتخطيط، والانحصار فى نطاق هنا والآن فحسب.

خامسًا - الفقر الثقافى: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، انحطاط المستوى الثقافى لدى المرء، وعدم مسايرته

للمستوى الثقافى الاجتماعى فى المجال الذى يعمل فيه، بل رزوحه تحت نير الأمية الثقافية. فمن المعروف أن الثقافة هى أقوى سلاح يتسنى للمرء بواسطته أن يَشُق به طريقه إلى مستقبل أفضل من حاضره. فعندما يكتشف المرء أنه غريب عن مجتمعه، وأنه عاجز عن السعى وراء أبناء جِلْدته الذين سبقوه ثقافيًا ويتعاملون بالوسائل الثقافية المتطوِّرة، فإنه يصاب بالتالى بالشلل فى التفكير والعاطفة والإرادة، كما أن ضميره يتوقف عن العمل، وعن المشاركة الحضارية بطريق أو بآخر.

شروط الضمير السوى:

وعلينا فى نهاية المطاف أن نعرض الشروط الواجب توافرها فى الضمير حتى يتسنى وصفه بالسوية:

أولاً - الدقة فى تقييم سلوك المرء: فلكى يتسنى وصف الضمير بالسوية، فإن من الضرورى أن يكون دقيقًا فى تقييم سلوك صاحبه بغير إفراط أو تفريط. فهو لا ينحو إلى المبالغة فى تقييم الأخطاء التى تَصْدر عنه، كما لا ينحو أيضًا إلى التهوين من شأنها.

ثانيًا - ربط الماضى بالحاضر بالمستقبل: فصاحب الضمير السوى، يقيِّم التصرفات التى صدرت عنه،

والتصرفات التى تصدر عنه حاليًا، والتصرفات التى سوف يتخذها فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد. ومن ثمَّ فإنه يتخذ المواقف المناسبة لعلاج ما ترتب على تصرفات الماضى من آثار سيئة، ولتحاشى النتائج السيئة التى قد تترتب على تصرفاته فى الحاضر والمستقبل على السواء.

ثالثًا - التكيف مع التقييمات الاجتماعية: فصاحب الضمير السوى، يعمد إلى تكييف ضميره لمقتضيات الواقع الاجتماعى الذى يعيش فى إطاره، ويتعامل معه، ويتأثر به ويؤثر فيه. فإذا وجد أن ضميره متخلِّف عن قيمَ ذلك الواقع الاجتماعى، فإنه يعمل على شحذ همته حتى يلحق بالركب التقييمى الاجتماعى، ويتوازى معه، ولا يتخلف عنه.

رابعًا - الحدس والإلهام: وصاحب الضمير السوى يكون متمتعًا بالحدس Intuition ، أعنى استقراء الواقع المحسوس مباشرة، بغير استناد إلى مقدمات تؤدى إلى النتائج، أو بتعبير أدق القدرة على القفز المنطقى دون المرور على جميع المحطات الفكرية التى تؤدى ذهنيًا إلى النتائج. أما الإلهام Inspiration فهو تلقِّى رسائل إلهامية ذهنية من الواقع الخارجى، أو تلقِّى أفكار أو خطط لتنفيذها، فتعود على المرء بالفائدة المادية أو بالفائدة المعنوية، أو بالفائدتين معًا.

خامسًا - القدرة على التنفيذ والتأثير: وصاحب الضمير السوى هو ذاك الذى يستطيع أن يخرج ما فى مكنون نفسه إلى الواقع الخارجى، كما تكون لديه القدرة على الضبط السلوكى، فلا ينساق وراء الميل إلى الانتحار، بل يُلّجمه، ولا يسمح له بالسيطرة على قوامه النفسى، والتحكُّم فى تصرفاته، وهو أيضًا ذاك الذى يؤثِّر فى الناس والأشياء، ويكون لتأثيره فاعلية طيبة فى حياتهم الحاضرة والمقبلة على السواء.

* * *

الفصل الثامن

الضمير المُلتهب

معنى الضمير الملتهب:

نقصد بالضمير الملتهب مجموعة من المعانى أو الحالات التى نستطيع تقديمها على النحو التالى:

أولاً – تضخيم الأخطاء: فصاحب الضمير الملتهب، يجعل الخطأ الصغير خطأ ضخمًا، أو جريمة لا يمكن أن تغتفر أو يُغضى عنها، وذلك عن طريق تخيلاته المنحرفة عن الواقع.

ثانيًا : توهُّم أخطاء لم تَصْدر عن المرء: فصاحب الضمير الملتهب، يمكن أن يخلق بمخيلته، أخطاء أو انحرافات سلوكية، لم تصدر عنه أصلاً، ولكنه ينسبها إلى نفسه، وربما يكون قد قرأ عنها فى كتاب أو مجلة، ولكنه بالوهم يعزوها إلى نفسه، كما لو أنه قد اقترفها بالفعل، وبالتالى فإنه يحس بأنه مذنب.

ثالثًا – عدم التمييز بين ما يطرأ على الذهن وبين ما

يمارس في الواقـع : فصاحب الضمير الملتهب، يعتقد أن ما يغزو فكره، فإنه يكون بالضرورة قد سيطر عليه، ولا فرق فى نظره بين الفكرة وبين التصرف الواقعى، أعنى تجسيدها فى واقع سلوكى. فالفكر فى نظره هو الجوهر، أما التصرف الخارجى فهو القشرة الظاهرية لذلك الجوهر. وعلى هذا فإنه يحسب نفسه مخطئًا أشد الخطأ، لأن الأخطاء السلوكية تجد لها مكانًا فى ذهنه فى هيئة أفكار.

رابعًا – عدم التفرقة بين الكلام وبين ما يشير إليه من تصرفات: فصاحب الضمير الملتهب، يعتقد أن الكلام الذى يفوه به، لا يقل خطورة عن التصرفات التى تترجم كلامه إلى سلوك مؤدًّى فى الواقع الخارجى. وعلى هذا فإنه يفضّل الصمت على الكلام، حتى لا يستشعر ما يتضمنه من خطأ يحسب عليه، أو يحاسب نفسه عليه، كما لو أنه تصرفات بادية للعيان.

خامسًا – خدش مشاعر الآخرين خطأ لا يغتفر: فصاحب الضمير الملتهب، يكون حساسًا لمشاعر الآخرين. وأخشى ما يخشاه أن يخدش مشاعر غيره، سواء بكلمة أم بحركة أم بموقف. وهو لا يميِّز بين الناس من حيث ما يجب توظيف الكلام والتصرفات بإزائهم، بحسب مقتضى الأحوال، وما يستحقه كل موقف من كلام أو تصرف، بغض النظر عن

مشاعر من يوجِّه إليهم الكلام، أو عما يتخذه بإزائهم من مواقف.

العوامل المؤثرة فى الضمير الملتهب:

وبعد أن قدمنا هذه المعانى أو الحالات التى يتصف بها صاحب الضمير الملتهب، فإن علينا أن نحاول كشف الستار عن العوامل التى تُحيل بعض الأشخاص إلى أصحاب ضمائر ملتهبة، فنجد أن هذه العوامل يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً - رهافة الحس الشديدة: فصاحب الضمير الملتهب، يكون مرهف الحس جداً، بحيث تحتل مشاعره المرهفة مركز البؤرة فى قوامه النفسى. فهو لا يتكيف بمشاعره للواقع الموجود حوله، أو الذى يحتك به، ويتعامل معه، بل إن المهم لديه هو الحفاظ على مشاعره من أن تنثلم. وهو لا يميز بين شخص وآخر من حيث استحقاقه لنوع معيَّن من المعاملة يتناسب مع قوامه النفسى، ومع أخلاقه، ومع ما يَصْدُر عنه من تصرفات، فهو ينظر إلى جميع الناس باعتبارهم ملائكة، لا تَصْدُر عن أى منهم، أى تصرفات أو كلام يستحق أن يقابَل بالخشونة، أو بتصرفات مقابلة تُلْجمه، وبكلام خشن يُسكته.

ثانياً - التسلّح بالحب ونبذ الكراهية: فصاحب الضمير الملتهب، لا يعرف قلبه إلى الكراهية سبيلاً. والواقع أن الشخص السوى، يعتبر أن الحب والكراهية وجهان لعملة واحدة. ومن المستحيل أن يكتفى المرء بالحب فى تعامله مع الناس، أو فى علاقاته بهم. فصاحب الضمير الملتهب يتألم نفسيًا، عندما يحس بالكراهية من شخص أو من تصرف ردىء يبديه أى شخص، ويعاتب نفسه بشدة، لأنه يكره بعض الأشخاص أو بعض التصرفات التى تَصْدر عن أى من أصدقائه أو معارفه، ويعتقد أنه قد انحرف عن طريق الخير، وانخرط فى طريق الشر.

ثالثاً - التشبث بالمبادئ المُطْلَقة: فصاحب الضمير الملتهب، لا يأخذ فى اعتباره ما تتطلبه المواقف والظروف المختلفة من تعديل فى السلوك، بل أهم ما يهمه هو سريان المبادئ المطلقة فى كل موقف، وفى كل وقت، ولا تهمه النتائج التى يمكن أن تترتب على التشبث بتلك المبادئ المُطْلَقة، وإهمال مقتضيات المواقف، وما يحدث من تطورات مستمرة فى العلاقات والمواقف والظروف.

رابعاً - نتائج السلوك لا تَهُم: ويبدو تناقض فى سلوك صاحب الضمير الملتهب، فبينما نجده يحب الناس دون تمييز فيما بينهم، وأنه يحب باستمرار ويحاول ألا يكره، فإنه فى

الوقت نفسه، يهتم بالتشبث بالمبادئ المُطلَقة، بغير إنعام النظر فيما يمكن أن يترتب على تمسُّكه بها من نتائج. فهو يظل متحمِّسًا باستمرار لتطبيق تلك المبادئ المُطلَقة، ولا يَحيد عنها، غاضًا النظر عن نتائج تطبيقها من نفع أو ضرر، سواء بالنسبة له شخصيًا، أم بالنسبة للآخرين الذين يتعامل معهم.

خامسًا – صاحب الضمير الملتهب لا يتطوَّر: ويترتب على تمسُّك صاحب الضمير الملتهب بالمبادئ دون النتائج التى يمكن أن تترتب على تطبيقها، عدم إحرازه لأى نمو فى شخصيته، ودون أن يتطوَّر سلوكه لكى يتواءم مع مقتضى الحال، ومع الظروف المتغيِّرة التى تحيط به، أو بغيره من أشخاص. فهو ملتفٌ حول ذاتيته، بحيث تكون تلك الذاتية هى المنبع الأول والأخير لما يفوه به من كلام، أو لما يَصْدر عنه من تصرفات، أو لما يضعه من خطط، يتوخى تنفيذها، أو لما يترسَّمه من أهداف، يجتهد فى تحقيقها.

علاقات صاحب الضمير الملتهب بالآخرين:

وعلينا بعد هذا أن نتناول النتائج التى تترتب على سلوك صاحب الضمير المتوهج من حيث علاقاته بالآخرين الذين يتعامل معهم، فنجد أن هذه النتائج تتمثل فيما يلى:

أولاً – تجنُّب الاختلاط بالناس بقدر الإمكان: فصاحب

الضمير الملتهب، يجد أن الناس من حوله يتحاشونه، فيتحاشاهم بدوره، وإذا اختلط بغيره، فإن صدامًا سلوكيًا يحدث بينه وبينهم. ذلك أنه يتقوقع فى نطاق المبادئ المُطْلقة، بينما يحاول معظم من يختلط بهم التكيف للمتغيرات التى تطرأ على المجتمع الذى يحيون فى إطاره، ويتضمن موقف صاحب الضمير الملتهب، تنابذًا بينه وبين الناس الذين يحيطون به. ويتبدى هذا التنابذ فيما يتصرفون به بإزائه، سواء بالغمز واللمز، أم بالتهكم عليه، والسخرية منه، أو باللامبالاة وعدم توجيه الحديث إليه، أو بعدم إشراكه فى أسرارهم، أو فيما يهمهم من أمور تشغلهم، خاصة بالواقع الخارجى، وبالأحداث التى تهز مشاعرهم، أو تثير انتباههم.

ثانيًا – التخلّف عن الركْب الاقتصادى: فالواقع أن منطق القيم المطلقة، والأخلاق المتزمتة، يتعارض أو لا يماشى منطق النجاح والربح الوفير فى المجال الاقتصادى. ذلك أن الاقتصاد يعتمد على تفهُّم المتغيرات التى تحدث فى السوق، والتكيُّف معها، بل إنه يعتمد أيضًا على مدى مراعاة رجل الاقتصاد للأمزجة والظروف التى تكتنف حياة من يتعامل معهم. وحيث إن صاحب الضمير الملتهب ينبو عن التماشى مع ركْب الواقع، ويقبع فى نطاق المبادئ المطلقة، فإنه لا يستطيع بالتالى أن يرتقى إلى مراقى الرخاء الاقتصادى، بسبب جموده، وتصلُّبه فى نطاق مبادئه المُطْلقة.

ثالثا - عدم البصر بالمستقبل: فصاحب الضمير الملتهب، لا يستطيع أن يستشرف آفاق المستقبل، واحتمالاته المتوقَّعة، وذلك لأنه يسجن فكره فى نطاق تلك المبادئ المطلقة، وما تتضمنه من وسائل سلوكية، تتعلق بالكلام، أو بالتصرفات المتباينة. فما يهمه هو ما يصدر عنه وعن غيره هنا والآن، ولا يهمه ما سوف يؤول إليه حاله، أو حال الآخرين بعد فترة من الزمن تقصر أو تطول.

رابعًا - لا يسلك إلا فى ضوء معيار سلوكى واحد: فصاحب الضمير الملتهب، لا يعاير سلوكه أو سلوك غيره إلا بمعيار مطلق ووحيد، هو معيار الخير والشر، بينما يسقط من حسابه معيار المناسب وغير المناسب، ومعيار المفيد والضار. ولا يهمه بأى حال أن يتصادم سلوكه من الأعراف الاجتماعية، أو مع ما يمكن أن يترتب على اتخاذه من تصرفات تفضى إلى حدوث أضرار بالغة، سواء له أم للآخرين، أصدقاءً كانوا أم أعداءً.

خامسًا - الصداقة فى نظره صداقة مبادئ وليست صداقة تربط بين قلبين: فصاحب الضمير الملتهب، لا يقيم صداقة مع شخص ما لأنه أحبه لذاته، بل يصادق من يؤمن بمبادئه. وكذا فإنه لا يعادى شخصًا لذاته، بل يعادى من يجد أن مبادئه لا تنسجم مع ما يؤمن به من مبادئ، أو تتنافر معها.

العوامل المعتملة فى صاحب الضمير الملتهب:

وعلينا فى نهاية المطاف أن نقوم بإلقاء الضوء على العوامل المؤثرة فى شخصية صاحب الضمير الملتهب، فنجد أن تلك العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالى:

أولاً - العوامل الموروثة: فالواقع أن المرء، لا يولد كصفحة بيضاء، تقوم التربية بنقش ما تريده عليها، بل إنه يكون مجهَّزًا بمقومات وراثية، إما أن تقوم التربية بإبرازها وإخراجها من حيِّز الكمون إلى حيز الواقع السلوكى، وإما أن تقوم بإخفائها أو بالتخفيف من وطأتها على الشخصية. فالشخص المتَّسم بالضمير الملتهب، يكون قد ورث استعدادات تحمله على أن يصير ضميره ملتهبًا.

ثانيًا - المكبوتات اللاشعورية: فما لقيه صاحب الضمير الملتهب من مؤثرات بيئية، ومن معاملة متصلِّبة خلال طفولته، يترسَّب جانب منها فى لاشعوره، تسيطر على مقاليد سلوكه، وتعمل على الإمساك بدفته وتوجيهها. فكثرة النهى، وتوقيع العقوبات الصارمة عليه خلال طفولته، يشكِّل عوامل مساعدة على التمسك بالمبادئ المطلقة، ومخاصمة الواقع الحى الذى يحيا فى نطاقه، ويتعامل معه.

ثالثًا – الحرمان من الخيارات التي يمكن أن ينتقى منها: فالحرية التى حرم منها صاحب الضمير الملتهب منذ نشأته طفلاً، تجعله لا يتخذ سوى طريق واحد، عليه أن يضرب فيه، ولا يتخطاه إلى أى طريق آخر. فلا توجد أى خيارات أخرى أمامه سوى المبدأ الذى فرض عليه فى طفولته، فصارت حياته ضحلة وفقيرة، وتفرض عليه أن ينهج وفق خط واحد ووحيد.

رابعًا – ما يتلقاه من إيحاءات وما يقوم به من تقليد: فمما لا شك فيه أن الأسرة المتزمنة، تنجب فى الغالب شخصيات متزمنة، أو ملتهبة الضمير. ولكن علينا ألا نعمم. ذلك أن بعض الأطفال والمراهقين والشباب الذين ينشؤون فى نطاق أسر متزمتة وملتهبة الضمير، قد يتخذون الموقف العكسى، أو بتعبير آخر، فإنهم بدلاً من تلقى الإيحاءات بطريقة إيجابية تقبُّلية مطابقة لما يعتمل فى شخصيتى الوالدين، فإنهم يعكسون ما يتلقونه منهما، وينحوان إلى التحرر، وتحطيم ما يصلهم منهما من إيحاءات، ويقدِّمون سلوكًا مضادًا للسلوك الذى يشاهدونه فى والديهم.

خامسًا – العوامل الثقافية المتزمتة: فالإنغلافية الثقافية، والانحباس فى نطاق ثقافى ضيق، يعمل على انغلاق الفكر، فالبيئة الثقافية التى تنحو إلى تحديد مبادئ صارمة، يجب

الخضوع لها، وعدم العزوف عنها، بل وعدم تطويرها وفق الظروف والمستجدات البيئية فى المجتمع الذى يحيا فيه المرء، ويتعامل معه، كثيرًا ما تعمل على قوقعة المرء فى قوقعتها، وبالتالى فإنه ينحو فى الغالب إلى التلبُّس بالضمير الملتهب.

* * *

الفصل التاسع

الضمير الفاتر

صفات صاحب الضمير الفاتر:

فى مقابل الضمير الملتهب، نجد الضمير الفاتر. ونحن نقصد بهذا اللفظ، مجموعة من الصفات التى يتصف بها صاحب هذا الضمير الفاتر، نستطيع تقديمها فيما يلى:

أولاً – ضعف القدرة على النقد الذاتى: فكما أن هناك ذكاء مرتفعًا وذكاء متوسطًا وذكاء منخفضًا لدى الأشخاص المتباينين، كذا فإن هناك أشخاصًا لديهم قدرة مرتفعة على نقد أنفسهم، وأشخاصًا لديهم هذه القدرة النقدية بدرجة متوسطة، وأشخاصًا لديهم هذه القدرة بدرجة ضعيفة. وأصحاب الضمير الفاتر تكون لديهم هذه القدرة، ضعيفة واهنة، أعنى قدرتهم على نقد أفكارهم وعواطفهم، وما يفوهون به من كلام، وما يأتونه من تصرفات.

ثانيًا – تَشَوُّش القيم لديهم: فأصحاب الضمير الفاتر، تختلط لديهم القِيَم. فهم لا يتسنى لهم إقامة فواصل قاطعة وواضحة بين الخير والشر، أو بين المناسب وغير المناسب، أو بين المفيد والضار. فبعض الخير يختلط لديهم بالشر، وبعض المناسب يختلط لديهم بغير المناسب، وبعض المفيد يختلط لديهم ببعض الضار. وبتعبير آخر فإن ثمة غموضًا وغَبَشًا يخلط بين قطبى كل ثنائية من هذه الثنائيات الثلاث. ولا شك أن هذا الغموض والغَبَش، يتواكب مع ضعف الضمير، لأن صاحبه يعجز عن إصدار حكم قاطع، ينضم بواسطته إلى قطب من قطبى كل ثنائية من الثنائيات الثلاث التى ذكرناها، أعنى الخير والشر من جهة، والمناسب وغير المناسب من جهة ثانية، والمفيد والضار من جهة ثالثة.

ثالثًا – الاندفاع مع عجلة الحياة: فكثرة المشاغل، والانخراط فى زحمة العلاقات، واستلاب الأحداث لوقت وجهد المرء، تجعله غير قادر على ملاحقة المواقف التى عليه أن يُصْدر أحكامًا بإزائها. فلا تبقى لديه طاقة أو وقت، لكى ينعم النظر فى كل حالة من الحالات المتعدِّدة والمتلاحقة بعضها بعد بعض التى ينخرط فيها، ومن ثَمَّ لا يتسنى له أن يُصْدر الحكم الصائب بإزاء كل حالة منها. ويتأتى عن ذلك الزحام والتدفق والضغط على ذهن المرء وعلى جهازه النفسى

بصفة عامة، إصابته ببلادة الضمير وفتوره. ذلك أن الضمير لكى يكون واعيًا وقويًا وماضيًا فى أحكامه، فلابد للمرء من تأمل كل حالة من الحالات التى تُعْرض أمامه، بروية وهدوء، وأن يتسنى له تخصيص الوقت الكافى لإنفاقه فى مدارسة كل موقف وكل حالة. وهذا ما لا يتسنى لمعظم الناس، وبالتالى فإن الكثير منهم يصابون بوَهَن الضمير أو فتوره.

رابعًا - سيادة معيار الفائدة واللذة: فالشخص الذى تغريه الفوائد والملذات، وتهيمن على أفقه النفسى، وتأسره لجانبها، وتُخْضع فكره وعواطفه وإرادته لها، يصاب تبعًا لذلك بفتور الضمير، أو بتعبير آخر، فإن ضميره ينزوى بعيدًا عن الحق والخير، ولا يتسنى له التمييز بين القيم المتباينة، حتى ولو كان فى مقدوره أن يكون على درجة من الذكاء تسمح له بالتمييز فيما بينها، لو لم تكن غشاوة الانحياز إلى ما يفيده وما يلذه، قد ضربت بأطنابها فى قوامه النفسى.

خامسًا - التبعية المطلقة للجمهرة: فمن المعروف أن التمييز بين القيم، إما أن يكون فرديًا، وإما أن يكون جمعيًا. ولكن لابد من توافر الضمير الفردى إلى جانب الضمير الجمعى، حتى يتسنى للمرء أن يكون متمتعًا بالصحة النفسية الجيدة. ولكن إذا ضغط المجتمع على الفرد، بحيث يذيب ضميره الفردى، ولا يَبْقى سوى الضمير الجمعى، يستمد منه

أحكامه. فإنه يصاب بالتأكيد بالوَهَن، وقد صار ما يَزْعم أنه صادر عن ضميره الفردى ليس سوى صدى لما يفرزه ضمير المجموعة التى ينتسب إليها ويذوب بشخصيته وإرادته فيها. ونحن نعلم أن المجتمع القومى عبارة عن عديد من المجتمعات الفرعية. فالشخص الذى فقد استقلال ضميره الشخصى، لابد أن يغيِّر جلده، كلما انخرط فى نطاق مجتمع ما من هذه المجتمعات الفرعية الكثيرة. وبالتالى فإنه لا يكون صاحب شخصية متمتعة بالاستقلال، فيما تصدره من أحكام، بل ويكون ضميرا الشخصى فى هذه الحالة فاترًا ضعيفًا .

العوامل المؤدية إلى فتور الضمير:

وهناك بلا شك مجموعة من العوامل التى تؤدى إلى فتور الضمير عند بعض الناس، لعلنا نقوم بتقديمها فيما يلى:

أولاً – التسيُّب التربوى: فالأسرة المفككة، أو الأسرة التى تتخذ موقف اللامبالاة من أطفالها، ولا توفر لهم التربية الأخلاقية والدينية السوية، التى تحملهم على التبصُّر بما هو خير وما هو شر، وما هو مناسب وما هو غير مناسب، وما هو مفيد وما هو ضار، فإنها تفشل فى تربية ضمائرهم الفردية. ولا شك أن تركيز الأسرة بصدد تربية أبنائها على ما يتعلق بالمناهج الدراسية، مع إهمال التربية الأخلاقية،

وعدم العمل على تشريبهم القيم الروحية والأخلاقية السليمة، يؤدى بالتأكيد إلى عدم توفير الفرصة لنمو الضمير بالمستوى الفردى الكافى لإصدار الأحكام الصائبة بصدد المواقف والأحوال المتباينة.

ثانياً - الانحرافات النفسية: ومن العوامل التى تؤدى إلى فتور الضمير، إصابة المرء بالانحرافات النفسية، التى تؤثر فى قدرته على ممارسة التفكير الصحيح، أو على التلبّس بالعواطف النبيلة، والاستمساك بالمثل العليا، أو على إصدار الأحكام السلوكية السديدة. وبعض الأمراض النفسية كالسرقة المرضية أو المخاوف المرضية، تكون مصحوبة بخفوت قوة الضمير وفتوره وعدم الشعور بالحَمِيَّة والغيرة على الأساليب السلوكية السوية.

ثالثاً - الشعور بالإحباط وعدم جدوى التشبث بأوامر الضمير: فالكثير من المصابين بفتور الضمير، يعزون فتورهم هذا إلى أنهم عندما كانوا متمسّكين بما كانت تأمرهم به ضمائرهم الشخصية التى كانت مفعمة بالقوة والحيوية، فإنهم لم يحظوا بالنجاح فى حياتهم، بل كانوا موضوعاً للهزء والسخرية من جانب أصدقائهم ومعارفهم، ولكنهم بعد أن استسلموا لما هو شائع حولهم، وبعد أن عمدوا إلى التكيُّف للواقع الاجتماعى المحيط بهم، فإنهم صاروا ناجحين فى

علاقاتهم الاجتماعية. ومن ثَمَّ فإنهم تنازلوا عن الحَمِية التى كانوا يتذرَّعون بها فى حياتهم، وخلدوا إلى الضمير الواهن الفاتر، ولم يعودوا يتشبثون بما كانوا يتشبثون به من أحكام قاسية يصدرونها بإزاء المواقف والنزوات والخروج على القيم الأخلاقية.

رابعًا – ميوعة القيم والخلط فيما بينها: ومن العوامل التى تؤدى إلى ذبول الضمائر ووهنها، ما شاع فى الأذهان بين المراهقين والشباب من الجنسين بصفة خاصة، بأنه لا توجد فواصل واضحة بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل، أو بين المناسب وغير المناسب، أو بين المفيد والضار. وساعد على هذا التَشَوُّش الذى شاع بينهم، ما يشاهدونه اليوم بكثرة على شاشات التليفزيون، ومن خلال أفلام الفيديو، من أفلام تشجع على إشاعة روح الإجرام، وتتجاوب مع الخارجين على القيم السلوكية، وبخاصة القيم الجنسية. وقد أدى إقبال المراهقين والشباب من الجنسين على مشاهدة تلك الأفلام وتشبعهم بها، تنازلهم عما كانوا قد تشربوه من قيم دينية وأخلاقية تقليدية سديدة ومطلقة.

خامسًا – قهر القيم النسبية للقيم المطلقة: فبعد أن كانت القيم المطلقة هى السائدة على الآفاق النفسية عبر الأجيال

القديمة، إذ كانت الفكرة أو العاطفة أو الإرادة إما خيِّرة وإما شريرة، فإن النسبية صارت اليوم هى السائدة، فصارت الفكرة أو العاطفة أو الإرادة موصوفة بالخيرية فى موقف ما، وبالشرية فى موقف آخر. وما يعتبر خيرًا بالنسبة لشخص ما، يعتبر شرًّا بالنسبة لشخص آخر، وما يعتبر خيرًا فى أحد المجتمعات، يُعْتبر شرًّا فى مجتمع آخر، بل إن ما يعتبر خيرًا بالنسبة لمجتمع ما فى عصر ما، يعتبر شرًّا للمجتمع نفسه فى عصر آخر. ولقد تأتى عن هذه الفوضى والتداخل والامتزاج بين الخير والشر، ذبول الضمائر، وضربها بالخفوت والضمور والفتور.

النتائج السلوكية المترتبة على فتور الضمير:

وعلينا بعد هذا أن نلقى الضوء على النتائج السلوكية التى تتأتى عن فتور الضمائر، فنجد أن تلك النتائج يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً – هبوط مستوى الانتماء: فالواقع أن ثمة توازيًا بين قوة الضمير وبين قوة الانتماء الأسرى، والانتماء الدينى، والانتماء القومى. فكلما ضعفت قوة الضمير، وخفتت حيويته فى قلوب الناس، ذبل انتماؤهم ومناصرتهم لقضايا دينهم، وانتماؤهم ومناصرتهم لقضايا وطنهم، وانتماؤهم ومناصرتهم لأسرهم. ألا ترى أن الروابط فى نطاق الأسرة الواحدة قد

ذبلت، وصار الأخ شخصًا غريبًا فى نظر أخيه! إن هذا يرجع بلا شك إلى تضاؤل الضمائر وذبولها وخفوت قوتها وفتور حيويتها.

ثانيًا - الغش والالتواء: ويترتب على وهن الضمائر وخفوتها وفتور قوتها، شيوع الغش والخداع والالتواء فى علاقات الناس بعضهم مع بعض. فقديمًا كان التفوّه بالقَسَم شاهدًا على الحقيقة التى لا يداخلها أى غش أو خداع، ولكن التفوّه بالقسم صار اليوم بعد أن شاع الضعف والوهن والخلل والفتور فى الضمائر، وسيلة للكسب، وللضحك على ذقن الزبون الساذج، الذى ما يزال يؤمن بصدق من يُقْسم بأغلَظ الأيمان أو بالطلاق ثلاثًا. وينظر إلى ذلك الزبون الساذج باعتباره فريسة طريَّة يمكن اقتناصها لابتزازها، بعد خداعها بالكلام المنمَّق، أو بالقَسَم المؤدَّى بطريقة جادة وممتلئة بالحرارة، كتلك الحرارة التى تشاهد على وجوه الممثلين بالسينما والمسرح.

ثالثًا - الرياء والنفاق والتلوُّن مع مقتضى الحال: ومن النتائج التى تترتب على خفوت الضمائر وفتورها، انتشار السلوك الحِرْبائى بين كثير جدًّا من الناس. فالأشخاص العاديون صاروا على أعلى مستوى من المهارة فى تمثيل الأدوار الكثيرة المتباينة على مسارح الحياة اليومية، بل

والمتناقضة فى بعض الأحيان بعضها مع بعض، والتى يتلبسون بها كلما تطلَّبت المواقف الاستعانة بها، لكى ينجحوا فى جلب كسب، أو خروج من مأزق، أو خداع شخص أو أشخاص، أو استمالة قلوب الناس وتعلُّقهم بهم، أو إشاعة الرعب فى قلوبهم، أو توريطهم فى مشروعات وهمية، أو غير ذلك من مواقف، تستدعى القيام بتمثيل دور أو أدوار معيَّنة. ولعلنا لا نقول بدعًا إذ نقرر أن الناس صاروا يَتخذون من ممثلى السينما والمسرح أساتذة لهم فى أداء الأدوار التى يضطلعون بها فى حياتهم اليومية. فخفتت ثقة الناس بعضهم فى بعض. وزاد تربُّصهم بعضهم ببعض.

رابعًا - هبوط الحب والصداقة إلى مستوى السلعة: ولقد تأتى عن إصابة الضمائر بالفتور والضعف والوهن، أن استحال الحب بين الناس، والصداقة فيما بينهم، إلى مجرد سلعة تستهلك بمجرد انتهاء الموقف الذى يتطلبه استخدام تلك السلعة. فما دامت المصلحة ما تزال معلقة، فيكون هناك إذن سبب وجيه لاستخدام السلعة التى تسمى الحب يبديه صاحب المصلحة لمن بيده قضاء تلك المصلحة. ولكن ما أن تُقْضى مصلحته، فيكون من العبث فى نظره الاستمرار فى الاستمساك بتلك السلعة، بل يجب التخلُّص منها، أو توفيرها لاستخدامها مع شخص آخر، يكون للمرء مصلحة جديدة عنده. وبتعبير آخر فإن الحب صار وسيلة يستعان بها وقت

الحاجة. وكذا يقال عن الصداقة بين الأصدقاء فى وقت فترت فيه الضمائر واضمحلت قوتها وخفتت. فالصداقة اليوم يمكن تعريفها بأنها علاقة تقوم بين شخصين أو أكثر، حتى يتسنى قضاء الوقت للترفيه، والتخفُّف من متاعب الحياة، أو تذليل صعوبة، أو عقد صفقة أو إحراز ربح، أو الإحساس بالعُزْوة. فكل صديق لا يوفر لصديقه الوقت الممتع، أو لا يذلل أمامه صعوبة، أو لا يترتب على صداقته الحصول على مكانة اجتماعية مرموقة، فإن صداقته تتحطم فورًا.

خامسًا - الكراهية والتربُّص اللذان يُبطّنان الحب:

فعندما تخفت قوة الضمير، ويصير متهالكًا وفاترًا، فإن الكراهية والتربُّص يستوليان على القلوب، ولكن حيث إن الإنسان كائن حربائى، يستطيع أن يغيِّر جلده، وأن يبدى من السلوك غير ما يُبْطن، فإن بمقدوره إذن أن يُقَبِّل على من يبغضهم أشد البغض، فيغرقهم بالأحضان والقبلات والكلام المعسول، بل إنه يستطيع أن يشكِّل نظراته التى يحدِّق بها فى وجوههم، ويكيِّف ملامح وجهه، فيجعلها تنطق بكل الحب والشوق العميق، والتعبير بأبلغ العبارات التى تؤكد للمحبوب العدو - إذا صح التعبير - بأنه لا يستطيع أن يستغنى عنه لحظة واحدة.

* * *

الفصل العاشر

الضمير العادل

خصائص صاحب الضمير العادل:

نقصد بالضمير العادل، مجموعة من الخصائص التى يتمتع بها صاحب هذا الضمير، نستطيع تقديمها على النحو التالى:

أولاً - وزن الأمور بميزانها الصحيح: فالشخص المتمتع بالضمير العادل، لا ينحو إلى المبالغة فى تقدير المواقف والأحداث، كما لا ينحو إلى التهوين من شأنها. فديدنه أن يعطى كل موقف حقه بغير إفراط وبغير تفريط. وبالتالى فإن ضميره لا يهتاج لأسباب لا تستحق منه أن يبدى التوتر الزائد، كما أنه لا يتوانى أو يتكاسل أو يتباطأ أو يتخذ موقف اللامبالاة بإزاء أحداث أو مواقف تستحق منه أن يعطيها حقها من التوتر والاهتمام والقلق والانزعاج.

ثانيا - الموقف التكاملى : وصاحب الضمير العادل، لا يقتصر عمل ضميره على ما حدث فى الماضى، أو على ما يحدث فى الحاضر، أو على ما سوف يتصرف به فى المستقبل، بل إن ضميره يعمل بإزاء أحداث الماضى والحاضر والمستقبل جميعًا. وكذا فإن صاحب الضمير العادل يُوّلى اهتمامه بجميع المسائل والمواقف والأحداث، دون أن يُسّقط أى مسألة أو أى موقف أو أى حدث من حسابه. كما أنه لا يركِّز على ما يخص بعض الأشخاص دون غيرهم، بل يأخذ فى اعتباره جميع الناس الذين يتّصل بهم، أو يتعامل معهم، أو تكون له علاقة بهم.

ثالثًا - النظرة الاستشرافية: وصاحب الضمير العادل، يتمتع بنظرة تنبؤية لما يمكن أن يترتب على ما يضطلع به فى الحاضر من نتائج. فهو يقوم باستعراض تلك النتائج المتوقَّعة، ويعايرها بما تستحقه من تقييم وتقدير، فيتوخى أن تكون تلك النتائج المتوقعة، متمشية مع قيم الحق والخير والجمال.

رابعًا - التقييم الإطلاقى والتقييم النسبى: وصاحب الضمير العادل، يميِّز الأمور التى يجابهها فى الحياة، فيفرِّق بين ما يجب تقييمه بطريقة مُطلَقة، وبين ما يجب تقييمه بطريقة نسبية. والتقييم الإطلاقى لا يقبل أخذ الظروف

الراهنة أو الميول العاطفية فى الاعتبار لدى تقييم المواقف المختلفة، فهو لا يقبل التنازل أو الإغضاء عن أى جانب منه، فهو تقييم كلى، لا يقبل التجزئ أو التنازل عن جانب ولو ضئيل منه. أما التقييم النسبى فهو تقييم يقبل الزيادة والنقصان، كما يقبل التأجيل أو الإلغاء، ويقبل أيضًا التوصُّل إلى الحلول الوسط، وأخذ الظروف والمواقف فى الاعتبار. فمثلاً بالنسبة للشَرَف أو الكرامة، فإن صاحب الضمير العادل يضعهما فى قائمة الإطلاق. أما الحقوق المادية، فإنه يضعها فى قائمة النسبية، إذ أن بالإمكان أن يتنازل عن بعض تلك الحقوق لأسباب إنسانية، أو فى ضوء تقدير ظروف من له عندهم حقوق مالية يجب عليهم الوفاء بها.

خامسًا – اليقظة المستمرة: وصاحب الضمير العادل، يكون متمتعًا باليقظة الضميرية المستمرة، فلا يسمح لضميره بأن يتقاعس، أو أن يتكاسل، أو أن يتباطأ بسبب الغفلة، أو الرغبة فى النوم، أو بسبب الإرهاق فى العمل، أو نتيجة الإغراءات الجنسية، أو الوقوع تحت تأثير المجاملات، أو غير ذلك من علاقات. فهو شخص لا يخضع لتأثير الآخرين بالعواطف والكلام المعسول، الذى يوجهه إليه المُغْرضون لحَمْله على الانحراف عن الجادّة، ولَىِّ ضميره بالانحياز لشخص أو لفئة من الناس، أو بالتعصب ضدهم فهو فى حالة يقظة ضميرية مستمرة، لا تعرف إلى الالتواء سبيلاً.

المواقف الحرجة التى يقابلها صاحب الضمير العادل:

وعلينا بعد هذا أن نقوم فيما يلى باستعراض أهم المواقف الحَرِجة التى يتعرض لها صاحب الضمير العادل، والتى يجب عليه أن يَصْمد أمامها، ولا يطأطئ رأسه تحت تأثيرها.

أولاً – ما يمكن أن يترتَّب على موقفه العادل من خسارة مالية: فصاحب الضمير العادل، يتخذ موقف الحق، وليس شيئًا غير الحق، بإزاء ما له وما عليه من حقوق مالية. فهو لا يطالب إلا بحقوقه، كما أنه لا يتغاضى عن حقوقه مجاملةً لأى شخص تكون له حقوق مالية عنده، أو خوفًا منه، أو حرجًا من أن يخدش مشاعره. وكذا فإنه إذا طُلِب للشهادة وتقديم المعلومات التى تخص قريبًا أو صديقًا له، فيما يتعلق بالحقوق المالية التى له أو عليه، فإنه يُقِر بما يعرفه بغير زيادة أو نقصان، وبغير مبالغة أو إنكار.

ثانيًا – انقلاب الصداقة إلى عداء: فالكثير من الناس، إذا لم يسايرهم المرء فيما يرغبون فيه، أو فيما يلائم أمزجتهم المنحرفة، فإنهم يَقْلِبون له ظهر المِجَن، ويقاطعونه، أو يعلنون له أنهم لا يثقون فيه، لأنه لا يُعْتمد عليه. ولكن صاحب الضمير العادل، لا يهمه سوى توخَى العدل فى الفكر والعاطفة والإرادة،

وتقدير المواقف المختلفة التى تتطلَّب منه قياسها بدقة، وعدم الاندفاع فى التيار النفسى الذى يرضى الآخرين ويتملَّقهم.

ثالثًا - التهديد أو التملق: وصاحب الضمير العادل، لا تؤثِّر فيه المواقف التى يتعرَّض فيها لخطر التهديد بالإيذاء المادى، أو بالإيذاء الجسدى، أو بالإيذاء المعنوى. فهو لا يعرف إلا الحقيقة، ولا يفوه إلا بها، ولا يتمسك إلا بما يُرْضى ضميره العادل. وكذا فإنه يتصف بأنه لا يلين تحت تأثير الكلام المعسول، أو بالوعود البراقة، أو بإثارة عواطفه، أو بذكر مآثره أو مآثر أسرته، وأفضالهم على جميع من تعاملوا أو يتعاملون معهم، إلى آخر تلك الوسائل العاطفية التى يستخدمها بعض المتملِّقين بمهارة فائقة، حتى يُثْنوا صاحب الضمير العادل عن موقفه الذى لا يعرف الزَّيْغ عن الحق. ولكن هيهات أن يلين لتلك الوسائل الخداعة، أو البعد عن الحق قيد أنملة.

رابعًا - الحرمان من بعض المزايا: ومن المواقف الصعبة التى يتعرَّض لها صاحب الضمير العادل، مناهضة من بيدهم الحل والربط له، وحرمانه من الترقيات والعلاوات إذا كان مرءوسًا لرؤساء منحرفين، وذلك لعدم انحرافه فى تيارهم، ولعدم الانجذاب لما يقومون بإغرائه به من مزايا، ماديةً كانت

أم أدبيةً. ولكنه لا ينثنى أمامهم، ولا يسعى لَمْرضاتهم، بل يهمه أن يراعى ما يأمره به ضميره. فكم من موظف أحيل إلى المحاكمة وزُجَّ فى السجن، لأنه انخرط فى تيار رؤساء فاسدى الذمة، ومعوجى الضمائر، فانحرفوا بضمائرهم، وأطاعوهم فيما كانوا يأمورنهم به، دون تمييز بين الخليق بالاتباع، وبين الخليق بالعصيان وعدم الانسياق.

خامساً - عدم الانسياق وراء الميول والعواطف: وصاحب الضمير العادل، لا ينساق وراء عواطفه الشخصية، وميوله الوجدانية. فهو يُرَجِّح كفة العقل والحكمة، على كفة الوجدان والغرائز. فالشابة الجميلة الجذابة، مهما كان وَقْعها على قلب صاحب الضمير العادل قويًا، فإنه يضبط نفسه، ولا يماشيها إلا فيما هو حق وعدل واستقامة. أما أن تستخدم جمالها لإغرائه والانحراف بسلوكه، أو خيانة وظيفته، فإنه من المُحَال بالنسبة له. فهو يظل شامخ الرأس عن أى انحراف، ومن أى انصياع وراء الأهواء والميول الوجدانية.

تقييم صاحب الضمير العادل لنفسه:

وعلينا بعد هذا أن نتصفح القوام النفسى لصاحب الضمير العادل، وموقفه من نفسه، وما يستشعره نتيجة تقييمه لمواقف ضميره العادلة، فنجد أنه يستشعر ما يأتى:

أولاً - الثقة الكاملة بالنفس: فصاحب الضمير العادل، يحس باستمرار بأنه مرفوع الرأس، كما يحس أنه مالك لناصية العالم بأسره. فهو واثق بنفسه، ولا يحس بالتبعية لأى إنسان يجانب الحق. فالحق هو الخليق بالاتباع فى كل موقف وفى كل زمان. فمهما كان وضعه الاجتماعى ضئيلاً، فإن شعوره بعدالة ضميره يملؤه عزة وثقة بالنفس.

ثانيًا - ضميره لا يقسو عليه: ومن الطبيعى أن شخصًا هذا شأنه، يتحرى العدالة فى مواقفه المختلفة، وفى علاقاته بالآخرين، لا يقسو عليه ضميره، ولا يعاتبه بإزاء أى موقف يتخذه، أو بإزاء أى تصرف يأتيه. ذلك أنه يتحرَّى العدالة بغير انحراف إلى الإفراط أو إلىٰ التفريط، ولا ينجَرِف مع التيار الذى يمكن أن يدفع به إلى طريق الضلال.

ثالثًا - الإحساس بالرضى بإزاء الماضى والحاضر: فصاحب الضمير العادل، يحس بصفة مستمرة بالرضى عن ماضيه من جهة، وعن حاضره من جهة ثانية. ذلك أنه ملتزم دائمًا بعدالة الفكر والعاطفة والإرادة. فهو فى جميع علاقاته يناصر الحق وليس شيئًا غير الحق. ولا ينحرف بأى حال من الأحوال عن طريق الحق والفضيلة والاستقامة.

رابعًا - له هيبته بين المتعاملين معه: فصاحب الضمير العادل، يحس باستمرار، بما يحوزه من هيبة. ذلك أن جميع

أصحاب الضمائر الملتوية، يخشون بأسه، ويحاولون إخفاء معايبهم السلوكية عنه، وعدم تَعْرية انحرافاتهم فى الذمة والضمير أمامه، لأنهم يعلمون أنه سوف لا يسكت إذا ما كاشفوه بما يخبئونه فى صدورهم العفنة. ذلك أنهم يهابونه ويخشون بأسه، ويعجبون فى الوقت نفسه بشجاعته وإبائه عن الانجراف مع أهوائهم الرديئة.

خامساً - يحظى بالحب من أمثاله من أصحاب الضمائر العادلة: فصاحب الضمير العادل، يُحِس بأن مَنْ على شاكلته، يقدِّرونه كل التقدير، ويحترمونه كل الاحترام، بل ويعتزون بمواقفه الجليلة، التى يُضْرب بها الأمثال فى الشموخ، والبعد عن الدنايا، والاستقامة فى الفكر والوجدان والإرادة، واتخاذ التصرفات السديدة فى جميع المواقف الحَرِجة التى كثيراً ما ينصاع لها أصحاب الضمائر الهشة.

نقد الآخرين له:

وعلينا فى نهاية المطاف أن نلقى الضوء على ما يمكن أن يوجِّهه الناس من حول صاحب الضمير العادل من نقد إليه، فنجد أنهم يحددون نقدهم على النحو التالى:

أولاً - اتهامه بأنه يعيش فى بُرْج عاجى: فالمحيطون بصاحب الضمير العادل، الزائغون عن طريق الحق والعدل،

يرمونه بالتخلّف عن الحاضر، وما يزخر به من متغيّرات، وأنه يعيش فى عصر انقضى وانتهى، فهو يستمسك بمُثُل عليا بالية، لا تصلح لأن يتعامل بها المرء فى العصر الحالى، ولن تصلح للتعامل بها فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد على السواء.

ثانيًا – اتهامه بالكبرياء: والمناوئون لصاحب الضمير العادل، كثيرًا ما يتهمونه بالتكبُّر عليهم، وذلك لأنه لا يجالسهم ولا يماشيهم فيما ينهجون وَفْقه من انحرافات سلوكية، ويعتبرون أن ما يتهمونه به من كبرياء، إنما هو ثمرة للبيئة المنغلقة التى تربى فيها، وهى بيئة غير متفتحة، لا تفهم الحياة حق الفهم.

ثالثًا – اتهامه بالتآمر عليهم ونقل أخبارهم إلى الجهات المسؤولة: ومن الطبيعى أن يوجه الناقدون إلى صاحب الضمير العادل، الاتهام بأنه يُفْشى أسرارهم، ويتجسَّس عليهم، ويَشِى فى حقهم لدى الرؤساء. وهم يدأبون على تأليف القصص والافتراءات عليه، مؤكدين خيانته لهم، وأنه السبب الرئيسى فيما لحق بهم من أضرار، وفيما وُقِّع عليهم من جزاءات، مع أن الواقع أن ليس له أى ذنب أو جريرة فى ذلك من قريب أو من بعيد.

رابعًا - تلفيق الاتهامات له وتقديم الشكاوى ضده:

فالمنابذون لصاحب الضمير العادل، يُحِسون أن وجوده يُشَكِّل خطرًا كبيرًا يتربَّص بهم، ولذا فإنهم يحاولون باستمرار أن يكيلوا له الاتهامات، وأن يحرِّروا ضده الشكاوى المجهولة، فيقف أمام المحققين. والعيار الذى لا يصيب يدوِّش كما يقال فى الأمثال. فعلى الرغم من أن المحققين يجدون أنه برىء من الاتهامات التى تتضمنها الشكاوى التى حُرِّرت ضده، فإنه يحس بالحَرَج والتوتر، ويَحِل عليه النكد والحزن، لأنه يتهم بتهم باطلة لم يرتكبها، ولكن مع هذا فإنه يَعلَم أن هذه هى الضريبة المعنوية التى يجب عليه أن يسددها، طالما أنه متمسك باستقامة الرأى وبعدالة الضمير.

* * *

الفصل الحادى عشر

الضمير والصحة النفسية

معنى الصحة النفسية؟

يحسبن بنا أن نلقى الضوء على مفهوم الصحة النفسية، حتى يتسنى لنا أن نتفهَّم العلاقة بين ما يجب أن تكون عليه، وبين الضمير. فالصحة النفسية تعنى مجموعة من الحالات التى نقدمها فيما يلى:

أولاً- المعنى التفاعلى: فالواقع أن هناك علاقة تبادلية حميمة فيما بين الصحة الجسمية والصحة النفسية. فالصحة الجسمية تؤثِّر فى الصحة النفسية، كما أن الصحة النفسية تؤثِّر فى الصحة الجسمية. فمن الخطأ أن يَعْزِف المرء عن تناول الصحة الجسمية عند تناوله للصحة النفسية، بل لابد له أن يأخذ المستوى الصحى الجسمى لدى المرء فى اعتباره، حتى يتسنى له الوقوف على مستوى صحته النفسية. بيد أن

هناك تفاوتًا فى تأثير المقومات الجسمية المتباينة فى الصحة النفسية. ولعل أهم ما يؤثر فى الصحة النفسية، الجهاز العصبى المركزى وبخاصة المخ، والجهاز العصبى السمبتاوى والغدد الصمَّاء بما تفرزه من هورمونات فى الدم مباشرة.

ثانيًا – المعنى التكاملى: وهذا المعنى للصحة النفسية، ينصب على العلاقة التكاملية فيما بين وظائف العقل، أعنى الإدراك الحسى، والتذكر، والتخيل، وإحراز المفاهيم المجرَّدة والمُعَمَّمة، وبين الوظائف الوجدانية، وبخاصة القدرة على تبلور الوجدانات حول موضوعات معينة، إما بطريقة إيجابية فينشأ الحب، وإما بطريقة سلبية فتنشأ الكراهية، وأيضًا بين الوظيفة الإدراكية والوظيفة الوجدانية من جهة وبين الوظيفة الإرادية من جهة أخرى، بما تتضمنه من الإقدام على عمل ما من جهة ، والقدرة على الانضباط ، والتوقُّف عن إخراج ما يعتمل فى العقل إلى حَيِّز الواقع السلوكى، وعما تنحو إليه العواطف من نزوع conation، وقمعها بدخيلة المرء.

ثالثًا– المعنى العقلانى: وهذا المعنى ينصبُّ على ما أُهِّل به المرء من ذكاء، أعنى القدرة على إقامة العلاقات بين الأشياء والمواقف والحالات والظروف التى تحيط به من جهة، والقدرة على اكتساب الخبرات التى تتضمنها المواقف والحالات

والظروف التى يمر بها المرء من جهة ثانية، والقدرة على توظيف تلك الخبرات بطريقة أو بأخرى فى واقع الحياة من جهة ثالثة. ثم هناك القدرات الخاصة التى تتعلَّق بالعمليات المختلفة. فثمة قدرة خاصة بنوع معيَّن من النشاط الذى يضطلع به المرء، أقوى من قدرة أو من قدرات أخرى. فمثلاً بالنسبة للشخص الموهوب فى الموسيقى، فإن قدرته الخاصة التى تتعلَّق بالموسيقى، تكون لديه أقوى من قدرته الخاصة بالرسم مثلاً. ثم هناك الوظائف المتعلقة بالذاكرة، أعنى حشد المعلومات فى الذهن، بحيث يتسنى استرجاعها، أو الربط فيما بينها، أعنى إقامة علاقات بين الذكريات السابقة والذكريات التى تَدْلِف إلى الذاكرة حديثًا. ثم هناك الوظائف التى تضطلع بها المخيلة من تكبير وتصغير، وتقديم وتأخير، وإناطة مواهب ووظائف لكائنات ليست لديها هذه المواهب والوظائف. وهناك القدرة على التجريد والتعميم، والتفكير المنطقى المتجرِّد عن الوقائع والأحداث الواقعية. ثم هناك أخيرًا القدرة على استشراف المستقبل، وتوقُّع الأحداث والنتائج التى يمكن أن تترتَّب على توافر أسباب معينة، سواء قدَّمها المرء، أم قدَّمها غيره، ويَتوقع أن تُفْضى إلى نتائج معينة، ولكى يتسنى للمرء أن يكون متمتعًا بالصحة النفسية الجيدة، فلابد أن يكون لديه القدر المعقول من هذه القدرات العقلية المختلفة التى تتعلق

بالمدركات الحسية، والذاكرة، والتخيل، والتنبؤ بالنتائج، والتجريد والتعميم. وبحيث يكون الجهاز العقلى لديه متكاملاً بعضه مع بعض، ومتعاوناً بعضه مع بعض.

رابعًا- المعنى التكيُّفى: فكلما كان المرء متمتعًا بالقدرة على إقامة علاقات تبادلية ناجحة بينه وبين الناس الذين يتعامل معهم، وكلما كان متأثرًا بهم من جهة، ومؤثرًا فيهم من جهة أخرى، فإنه يكون متمتعًا إذن بمستوى صحى نفسى جيد. على أن الناس الذين يتعامل معهم المرء، يتباينون بعضهم عن بعض، كما أنهم يندرجون فى فئات يتجانس أفراد كل فئة منها بعضهم مع بعض. ولكن ليس شرطًا أن ينسجم المرء المتمتع بالصحة النفسية الجيدة مع جميع تلك الفئات الاجتماعية، أو حتى مع كل شخص يقابله، أو يتعامل معه فى الفئة التى يتجانس معها بصفة عامة. فالتكيف يجب أن يكون تكيفًا انتقائيًا، وليس تكيفًا اعتباطيًا. فكلما كان المرء مسيطرًا على العمليات التكيفية وموجِّهًا لها، ومنتقيًا لما يروقه، ولما يماشى مستواه الثقافى ومستواه الاجتماعى، فإنه يكون إذن أكثر تمتعًا بالصحة النفسية الجيدة.

خامسًا- المعنى الثقافى: والثقافة تتضمن الثقافة المعرفية، والثقافة المهارية، والثقافة القيمية، والثقافة التذوقية

الجمالية، والثقافة العلائقية الاجتماعية. ومن الخطأ بالتأكيد قصر مفهوم الثقافة فى نطاق المعنى المعرفى فحَسْب. فمجرد تناول المرء للقلم والورق لكى يكتب شيئًا على الورق، فإنه لابد أن يكون قد اكتسب ثقافة مهارية خاصة باستخدام القلم والورق. ناهيك عن الكتابة على الآلة الكاتبة، أو على لوحة مفاتيح الكومبيوتر. ومن الخطأ بالطبع أن نُغْفل أهمية القيَم فى حياتنا الثقافية، سواء كانت قيمًا دينية أم قيمًا أخلاقية. ومن الخطأ أيضًا أن نغفل الثقافة التذوقية الجمالية، أو الثقافة العلائقية التى يكتسب المرء عن طريقها كيف يتعامل مع من هم فى مستواه، ومن هم أكبر منه، ومن هم أصغر منه. وكلما كان المرء أكثر ثقافة بإزاء النواحى الخمسة التى ذكرناها، كان بالتالى حائزًا على مستوى مرتفع من الثقافة.

الأدوار التى يلعبها الضمير فى الصحة النفسية:

وعلينا بعد أن استعرضنا معنى الصحة النفسية، وما تتضمنه من جوانب وزوايا متباينة، أو نتفحص الدور الذى يلعبه الضمير بإزاء الصحة النفسية، فنجد أن هذا الدور يتضمن الأدوار الفرعية التالية:

أولاً- الدور التنّموى: فالضمير يقوم بدور الرعاية والعناية بالصحة النفسية، وينتقى الوسائل التى إذا ما تذرَّع

بها المرء، فإنه يحقق لنفسه النمو الصحى النفسى بجميع زواياه التى ذكرناها. ذلك أن الصحة النفسية بجميع فروعها الخمسة، لا تعدو أن تكون ثمرة لاعتمال الوسائل الإيجابية فى قوام المرء واستعداداته ومواهبه، فيتأتى عن ذلك الاعتمال، المستوى الصحى النفسى الذى يصل إليه. ولاشك أن الضمير إذا كان ضميرًا غير واعٍ بالدرجة الكافية، فإن النمو الصحى النفسى يتخلّف عن المستوى السوى. وأكثر من هذا، فإننا نستطيع أن نزعم بحق أن الضمير الواهن، أو الضمير الذى لم يحظ بالصلاحيات اللآزمة لحسن رعاية الصحة النفسية، يكون عاملاً مؤثّرًا فيما يصيب الشخصية من انحرافات وأمراض نفسية متباينة.

ثانيًا– الدور الرقَابى: والضمير السوى، يكون حريصًا على تشديد الرقابة على مسيرة الصحة النفسية لدى المرء. وكلما كانت الرقابة الضميرية أكثر حزما ووعيا، فإن النتيجة المتأتية بإزاء الصحة النفسية تكون جيدة. ولكن الرقابة التى نقصدها ليست بمعنى التزمُّت، ومصادرة حرية المرء، بل نقصد أن تكون الرعاية رشيدة، وغير متزمّتة، وغير متسيبة، فى الوقت نفسه. وتتضمن الرقابة الضميرية الواعية، الحرص على التمتع بالصحة الجسمية الجيدة، وما يمكن أن تتأثر به، فينعكس ذلك التأثر فى الصحة النفسية. ناهيك عن الرقابة

الواعية بإزاء المؤثرات السلوكية، التى يمكن أن تتحرف بمستوى الصحة النفسية.

ثالثًا- الدور التصحيحى: فثمة ما يعرف بالتربية الذاتية، التى بمقتضاها يقوم المرء بمراجعة نفسه، وتصحيح ما اعوج من سلوكه. ولاشك أن الضمير، هو الذى يضطلع بهذه العملية التربوية التصحيحية. ولعلنا نزعم بحق، أن التربية التى تَصْدُر إلى المرء من خارجه عن طريق الوالدين والمعلمين والكبار بشكل عام، تتآزر مع هذا النوع من التربية الذاتية، ويتأتى عن تآزرهما معًا، تصحيح الأخطاء السلوكية، وانتهاج خطوط سلوكية جديدة ذات مستوى أرفع من المستوى الذى كان عليه السلوك قبل هذا التآزر بين النوعين من التربية، أعنى التربية الغَيِّرية، والتربية الذاتية.

رابعًا- الدور التأنيبى التوبيخى: ولكن الدور الذى يلعبه الضمير بإزاء التربية الذاتية لا يقف عند هذا الحد، بل يتعدى ذلك إلى ما يوجهه من تأنيب وتوبيخ إلى المرء، لأنه لم يضطلع بتلك التربية الذاتية على الوجه الأكمل، كما أنه لم يستفد بالتربية الغَيِّرية التى قام بها الوالدان والمعلمون والكبار بصفة عامة بإزائه. ولقد يبالغ الضمير فيما يقوم به من تأنيب وتوبيخ، ويتأتى عن ذلك الفتُّ فى عَضُد المرء، وارتماؤه فى حمأة اليأس والقنوط.

خامساً - الدور التشجيعى: وفى مقابل الدور التأنيبى التوبيخى، فإن الضمير يضطلع بدور مقابل، هو الدور التشجيعى. فعندما يقوم المرء بما يطالبه به ضميره على خير وجه، فيحس بتحسُّن أحواله النفسية، وتَقَدُّم صحته النفسية، فإن ضميره يرضى عنه، ويعمِد إلى تشجيعه، وتقريظه، والثناء عليه، كما يبشِّره بمستقبل أفضل من الحاضر والماضى جميعًا، وبالنجاح والسؤدد فى وضعه الاجتماعى، وفى تقييمه لنفسه، وتقديره لما يتمتع به من صحة نفسية عالية المستوى.

العقبات التى تعتمل على إبطال عمل الضمير:

وعلينا فى نهاية المطاف أن نستعرض العقبات التى تحُول بين الضمير وبين العمل على الارتفاع إيجابيًا بمستوى الصحة النفسية، وهى على النحو التالى:

أولاً- تمكُّن العادات السيئة: فإذا ما استولت العادات السيئة على الشخصية، سواء كانت عادات عقلية، أم عادات وجدانية، أم عادات حركية أدائية، أم عادات علائقية اجتماعية، فإن الضمير قد يجد نفسه عاجزًا عن التأثير فى مقومات الشخصية، وبالتالى فإن حركته بإزاء التقدم بخطى حثيثة فى تربية المرء والارتفاع بمستوى صحته النفسية، تكون مشلولة وعديمة الفاعلية.

ثانيًا- اعتمال الاستعدادات الوراثية الرديئة: فلقد يكون المرء قد ورث استعدادات نفسية رديئة، أو يكون تكوينه الجسمى، وبخاصة جهازه العصبى المركزى وغدده الصماء، مشتملة على عيوب موروثة، تتبدى آثارها فى شخصية المرء، ومن ثَمَّ فإن ضميره لا يكون مستعدًا للتدخل، بحيث يتسنى له تعديل ما أعوج من السلوك بفاعلية وتأثير، فى تلك الاستعدادات الوراثية الرديئة.

ثالثًا- المؤثرات التربوية الرديئة وبخاصة فى الطفولة: فالوالدن اللذان يدأبان على إهانة أطفالهما بالضرب والتقريع والتوبيخ باستمرار لأتفه الأسباب، قد يعرضانهم للإصابة بالانحرافات النفسية المتباينة، فلا يتسنى لهم التمتع بالصحة النفسية الجيدة، وبالتالى فإن ضمائرهم لا تستطيع أن تلعب أدورًا إيجابية بإزاء تعديل وتقويم صحتهم النفسية.

رابعًا – المكبوتات اللاشعورية: فالواقع أن ما يختزنه المرء عَبّر مراحل عمره المتتالية، بدءًا بالطفولة، من مكبوتات لاشعورية، لا يظل هادئًا خامدًا، بل يتفاعل بعضه مع بعض، فتتضاعف تلك المكبوتات، وتشتد قوتها وتأثيرها، وبالتالى فإن قدرة ضميره على التدخل والعمل على تقويم سلوكه وتعديله وتنقيته من الشوائب يكون متعذّرًا.

خامساً- الرغبات والحاجات: فثمة دافعان يعتملان فى قوام الناس بصفة عامة: الدافع الأول الانتحاء إلى إشباع الرغبات، والدفاع الثانى الانتحاء إلى إشباع الحاجات. والرغبة قد تتوازى مع الحاجة، وقد تتعارض معها. فالطفل يرغب فى أن يعطف عليه والده، ولكن حاجته إلى العطف يجب ألا يبالغ فيها، وإلا فإن تلك الرغبة تستحيل إلى تدليل، وتتعارض مع حاجته إلى الانضباط والخوف بالقدر المعقول، واستخدام الحزم معه. وكذا فإن رغبة التلميذ فى اللعب، قد تتعارض مع حاجته إلى قضاء الوقت فى الاستذكار. فبالنسبة للأشخاص الذين اعتادوا على أن ينساقوا وراء رغباتهم منذ طفولتهم، حتى ولو تعارضت تلك الرغبات مع حاجاتهم، فإن ضمائرهم تقف عاجزة عن ترشيدهم وتعديل سلوكهم، بل إن هؤلاء الناس يَضْرِبون بتوجيهات ضمائرهم عُرْض الحائط.

* * *

الفصل الثانى عشر

الضمير بين الشجاعة والجبن

معنى الشجاعة :

حَرِىٌّ بنا أن نلقى الضوء على مفهوم الشجاعة، وبعد ذلك نلقى الضوء على مفهوم الجبن، حتى يتسنى لنا أن نقف على علاقة الضمير بكل منهما. فالشجاعة تعنى ما يأتى:

أولاً- الشجاعة لا تعنى عدم الخوف: فالشخص الشجاع يخاف ولكنه يستطيع أن يقدِّم استجابة لمشاعر الخوف المعتملة فى قوامه، مباينة للاستجابة التى تتأتى عن الشعور بالخوف. إنه يُحِل محل استجابة الخوف الهروبية، استجابة بديلة تتَّسم بالإقدام، أعنى أنه يقدِّم استجابة إيجابية بدلاً من أن يقدِّم استجابة سلبية. فصاحب العمل الشجاع، يحس بالخوف عندما يقف على تآمر العاملين لديه عليه، ويخشى

الإضرار بمصالحه، فيعمد إلى تقديم الحوافز والعلاوات لهم، دون أن يُظْهر لهم أنه يخشاهم، فيكون بذلك قد قضى على مصدر الخوف، وهو بوار أعماله، وتعطيل مصالحه، وابتلاؤه بالخسارة، وذلك بإحلال إجراء إيجابى هو منح الحوافز والعلاوات للعاملين عنده، محل ما كان يمكن أن يصيبه من ضياع، وارتماءٍ فى أحضان أخيلة تَزيد من خوفه من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على توقُّف العمل وبواره. فهو لابد أن يكون قد أحس بالخوف، ولكنه لم يتخذ الموقف الهروبى، والارتماء فى أحضان ما استشعره من خوف ووهم، بل اتخذ إجراءات جعلته يقتل الخوف الذى كان مسيطرًا عليه.

ثانيًا- الإلمام بالأسباب والنتائج: والشخص الشجاع يتمتع بالقدرة على إقامة رابطة بينٌ أسباب خوفه، وبين ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج. وبتعبير آخر فإن بمقدوره أن يربط بين أحداث الماضى، وأحداث الحاضر، وما يمكن أن يتمخَّض عنه المستقبل من نتائج وأحداث. فقدرته على الإلمام بما هو موضوعى خارج نطاقه، يسمح له بأن يسيطر على دخيلته. وبتعبير آخر فإنه يقهر الذاتى بالموضوعى، أعنى بإعمال ذهنه فى الواقع الموضوعى، ويضعه فى حجمه الحقيقى، فلا يسمح بفضل ذكائه الواقعى بأن يترك لخياله العنان، فينحو إلى تهويل المواقف، أو إلى إضافة المجهول الوهمى إلى المعلوم الموضوعى.

ثالثًا - التسلُّح بالوسائل الناجعة: ولكن الشخص الشجاع لا يتوقف عند حدود المعرفة، ويكتفى بالوقوف على الواقع الخارجى، بل يتسلَّح أيضًا بالأسلحة المناسبة للقضاء على مصادر الخوف، أو التخفُّف من وطأتها على الأقل. وهو لا يقع على أى أسلحة كائنة ما كانت، بل إنه يقوم بالانتقاء من بين أنواع متعدِّدة من الأسلحة التى يمكن أن يجابه بها الموقف الذى يخيفه، وينتهى من مقارنتها بعضها ببعض إلى اختيار أقواها وأمضاها، فيستخدمها بطريقة جيدة.

رابعًا - الاقتصاد فى استخدام الوسائل المتاحة: على أن الشخص الشجاع يتحرى الاقتصاد فى استخدام الوسائل الناجعة التى قام باختيارها. فهو لا يَلِف ويدور، ولا يحاور ويداور، بل يختار أخصر الطرق التى تؤدى إلى إحراز النتائج الفعالة والمُرْضية. فهو يهتم بأن يَقْضى على مخاوفه بأسرع ما يمكن، وذلك بفضل ما يقع عليه اختياره من وسائل فَعَّالة وإيجابية، يرد بها على ما يستشعره من مخاوف. وبتعبير آخر فإن الخوف الذى يعتمل فى قلب الشجاع لا يستغرق من الوقت سوى ثوان معدودات، وذلك لالتزامه بالاقتصاد فى الوقت، وفى استخدام الوسائل الإيجابية الفَعَّالة، التى تعمل على إطفاء حرائق الخوف التى بدأت تشتعل فى قوامه النفسى، وذلك بمجرد ظهور البوادر لاشتعالها.

خامساً - التسلح بخبرات الماضى: والشخص الشجاع لا يبدأ من الصفر فى كل موقف جديد يثير الخوف لديه، بل إنه يرتكن إلى خبراته السابقة التى مر بها، والتى شكلت لديه ثروة عظيمة يستثمرها فى مجابهة المواقف الجديدة. فهو بماضيه المفعم بالمواقف، والمحاولات التى نجح بواسطتها فى تحطيم أوثان الخوف، يكون قد اكتسب مجموعة من العادات العقلية الوجدانية والأدائية والعلائقية التى صار يستخدمها بطريقة شبه لاشعورية، بإزاء المواقف الجديدة التى يصادفها فى حياته، فتكون تلك العادات التى اكتسبها، وصار يمارسها بغير بذل للجهد، ذات فاعلية فى مواجهة المواقف الجديدة، وتحديها والتغلب عليها، وتطويعها لصفه، ولنصرته فى المواقف التى تحتاج منه إلى إبداء روح الشجاعة.

معنى الجبن:

وبعد أن ألقينا الضوء على مفهوم الشجاعة، فإن علينا أن نلقى الضوء على مفهوم الجبن، فنجد أن هذا المفهوم يتضمن الجوانب التالية:

أولاً - فوران المكبوتات اللاشعورية: فالشخص الجبان، يكون مفعماً بقدر كبير من المكبوتات اللاشعورية، المتعلقة بالمخاوف التى اكتسبها منذ طفولته، ومروراً بمراحل عمره

التالية. ومن المعروف أن المكبوتات اللاشعورية تتضاعف نتيجة التفاعلات الداخلية المعتملة بنشاط فى أغوار اللاشعور بين ما تم اكتسابه منها. وما يتم اكتسابه بمرور الوقت، فيتأتى عن تلك التفاعلات الخبْرية تكوين مُرَكَّب خِبْرى هائل، هو مركَّب الخوف الذى يهيمن على مقاليد شخصيته، ويجعلها حساسة لأى موقف يتضمن ما يمكن أن يثير الخوف فى قلبه.

ثانياً - سيطرة العادات العقلية والوجدانية والإرادية:

فالشخص الجبان يكون قد اكتسب مجموعة من العادات الانسحابية الهروبية من المواقف التى يجابهها، والتى تتضمن مقومات أو مثيرات تشيع لديه الخوف. فهو بدلاً من أن يكتسب عادات عقلية ووجدانية وإرادية إيجابية، فإنه يكون قد اكتسب عادات عقلية ووجدانية وإرادية سلبية، تَحْمله على الهروب والانزواء، مع ما يصاحب ذلك من خوف وهلع، وعجز عن التصرف، وعدم اتخاذ المواقف التى تقهر ما يعتمل فى مقوماته النفسية من تخاذل وانهزام.

ثالثاً- العجز عن الوقوف على حقائق الواقع الموضوعى:

والشخص الجبان يكون فى العادة منخفض الذكاء، أو على الأقل يكون شخصًا عاجزًا عن توظيف ذكائه فى الواقع

الموضوعى، حتى يتسنى له الوقوف على ما يتضمنه ذلك الواقع الموضوعى من أشياء تخيف أو لا تخيف. ومن ثمَّ فإنه يضيف إلى الحجم الحقيقى لأخطار وأضرار الواقع، أخطارًا وأضرارًا موهومة، تقوم مخيلته بتصنيعها، والعمل على تضخيمها، والزيادة فيما يمكن أن تحمله من خطورة عليه وعلى ذويه، أو على ممتلكاته، أو على مصدر رزقه.

رابعًا – افتقاره إلى الثقة بالنفس: فالشخص الجبان لا يثق فى متانة شخصيته، أو فى قدرته على الدفاع عن نفسه، بل على العكس من هذا فإنه يحس بالعجز، وعدم القدرة على الذود عن حياضه. ولعل ما سبق له أن عاناه من مواقف تَتَّسم بالخوف والهلع، تتفاعل هى أيضًا فيما بينها، لكى يتأتى عن تفاعلها مُرَكَّب خِبْرى هو مركَّب الجبن، فتتبدى له فى منامه الأحلام المخيفة والكوابيس التى تحرمه من النوم الهادئ. ذلك أن مركَّب الجبن لديه، يعمل بنشاط حتى فى أثناء نومه، فلا يستطيع أن يحظى بالنوم الهادئ، بل يظل التوتر جاثمًا عليه، سواء خلال نومه أم خلال يقظته.

خامسًا – عدم الثقة فى أى شخص: وعلى الرغم من أن الشخص الجبان يحتمى فى الآخرين، الذى يحس بأنهم يَتَّسمون بالشجاعة، فإنه لا يثق فى أى منهم. فهو برغم

احتمائه فيهم، فإنه يتوجَّس منهم خِيفة، ويعتقد أنهم قد يبطشون به فى أى لحظة، وفى أى موقف، وأنهم حتى إذا ما ساندوه فى أحد المواقف، فإنهم سوف يَتَخلُّون عنه فى المواقف التالية. فلا أحد يمكن الاعتماد عليه على طول الخط: ومن ثَمَّ فإن التقوقع على الذات، هو السبيل الوحيد الذى يمكن أن يضمن له الأمن والأمان.

ضمير الشجاع:

وعلينا بعد هذا أن نلقى الضوء على دور الضمير فى حياة كل من الشخص الشجاع والشخص الجبان على التوالى. ولنبدأ بعمل الضمير فى حياة الشخص الشجاع:

أولاً – لا يتحدى الضعيف أو المهزوم: فالضمير لدى الشخص الشجاع لا يسمح له بمناوأة من هو أضعف منه، أو من هُزِم أمامه فى المواقف السابقة، بل يعطف عليهما، ويحاول جاهداً أن يأخذ بيديهما، حتى يتخلَّص الضعيف من تخاذله، وحتى ينهض المهزوم من كَبْوته، ويستعيد مكانته الضائعة بسبب هزيمته أمامه.

ثانياً– يناصر المظلوم ويتحدى الظالم: والشخص الشجاع، يعمِد إلى بذل قصارى جهده، ويسخِّر جُل إمكاناته فى سبيل رفع الظلم عن المظلومين، وتحدى الظالمين، بل إنه

يبدأ فى مهاجمتهم إذا لم يرعووا، واستمروا فى إيقاع الظلم على الضعفاء أو المستضعفين. وهو لا يعرف إلى المناورات واللف والدوران سبيلاً، بل يطالب الظالمين برفع ظلمهم مباشرة، دون مساومات أو مناورات.

ثالثًا – يهتم بقضايا الفئات المظلومة أيضًا: والشخص الشجاع، لا يحصر اهتمامه فيما يتعلق بالأفراد فحسب، بل يُوّلى اهتمامه بالفئات المظلومة أيضًا، ويناوئ الفئات الظالمة. وبتعبير آخر فإنه يوسِّع دائرة نشاطه الشجاع، بدءًا من الدوائر الضيقة المتعلقة بالأفراد المظلومين الذى يسعى لرفع الظلم عنهم، إلى الدوائر الواسعة التى تشمل الفئات التى تضم فى نطاقها العديد من الأفراد الذين يلقون الظلم فى موارد رزقهم، أو فى كرامتهم، بما يوقعه عليهم المتجبِّرون.

رابعًا – يجند ثقافته لمقاومة الظلم: فالشخص الشجاع، يصبو إلى التمكن من الوسائل التعبيرية من خطابة وصحافة، وبما يشارك فيه من مؤتمرات وندوات، لكى يَفْضح الظلم، ويناصر المظلومين. فهو يعبِّر عما يحسون به، وما ينوءون تحته من نِير السلب والنهب وأكل الحقوق، ومن معاكسات وعقبات يضعها الظالمون فى طريقهم، فهو يوظِّف مواهبه وإمكاناته المادية والأدبية فى سبيل مقاومة الظلم، وقهر الظالمين.

خامساً – لا يتخذ من شجاعته سُلّماً للكسب أو لنيل الشهرة: فالشخص الشجاع يعتقد أن الشجاعة وإعلاء كلمة الحق، ورفع الظلم عن كاهل المظلومين، يتضمن فى طياته، أعظم مكافأة وأرفع مجد، بلا طنطنة، وبلا تذرُّع بالوصولية، وبلا طمع فى كسب أو شهرة. فالشجاع يجد أن الشجاعة بمثابة تاج لا يراه إلا من يذوق طعم الشجاعة، ويتحلى بها. فهو يرى أن أى شىء آخر غير التذرع بالشجاعة لا يساوى شروى نقير.

ضمير الجبان:

وعلينا فى نهاية المطاف أن نلقى الضوء على ضمير الشخص الجبان، فنجد أن ضميره ينحو إلى ما يأتى:

أولاً– التَمَلّق والوصولية: فالشخص الجبان يحس بخيبة الأمل عندما يتملقّ من له عندهم مصلحة، أو من يستجلب رضاهم عليه، ولكنه لا يحظى بمراده. فيأخذ ضميره فى تأنيبه لأنه لم يلعب الدور المناسب بطريقة جيدة، ويأخذ فى لوم نفسه لأنه تَمَلَّقهم أكثر من اللازم، أو لأنه قصَّر فى إطنابه لمن يجب أن يتقرَّب منهم.

ثانياً – الاعتياد على استذلال نفسه لمن بأيديهم الحل والربط: والشخص الجبان اعتاد على سماع الكلام الخشن، أو تلقى الإهانات من الآخرين، وتجهُّمهم فى وجهه. فما دامت

وسائله الجبانه، تساعده على قضاء مصالحه، فليس من المهم أن تصان كرامته أو أن تتمرَّغ فى الوحل. فشعوره بالضآلة وفقدان قيمة شخصيته، يجعله بليد الإحساس، وغير آبه بما يوجهه إليه الآخرون من كلام جارح، أو بما يتخذونه بإزائه من مواقف مفعمة بعدم الاكتراث واللامبالاة والاحتقار.

ثالثًا – الهروب من المظلومين أو المعتدى عليهم:

والشخص الجبان يتحاشى التعرض لأى مشكلة، كما أنه يتحاشى التدخل فى أى موقف، يكون من شأنه احتمال إصابته بالحَرَج، أو يفقد شفقة شخص ذو حيثية عليه. فمن يستنجدون به يهرب منهم، أو يحتج بالحجج الوهمية التى يمكن أن تقيه شر مجابهة المواقف التى تتسم بالشهامة والمروءة وتحدى الظالمين.

* * *

الفصل الثالث عشر

الضمير بين الحرية والانضباط

معنى الحرية والانضباط؟

علينا أن نلقى الضوء أولاً على ما نقصده بالحرية والانضباط، قبل أن نحاول إماطة اللثام عن علاقة الضمير بهما. ولنبدأ بالوقوف على معنى الحرية والانضباط على النحو التالى:

أولاً- الذاتية والموضوعية: فلقد تكون الحرية متعلّقة بذاتية المرء، كما أنها قد تكون متعلّقة بالظروف الخارجية والعلاقات الاجتماعية السائدة حوله. وكذا فإن الانضباط قد يكون صادرًا من ذاتية المرء، فينضبط سلوكه بباعث من دخيلته، كما أنه قد يكون صادرًا عن التزامات خارجية تجبره على إلجام سلوكه، أو على صبّه فى قوالب مجهزة له من قبل.

ثانيًا - التفكير الحر والتفكير المنضبط: والتفكير قد يكون

متحررًا من القيود التى يفرضها عليه المجتمع، كما قد يكون ملتزمًا بتلك القيود، ومراعيًا لها. بيد أن الحرية والانضباط بإزاء التفكير نسبيان فى الواقع. فليس هناك تفكير حرٌ حرية مطلقة، كما أنه لا يوجد تفكير منضبطٌ انضباطًا مطلقًا، ولكن يحكم على التفكير بأنه حر، أو بأنه منضبط، فى ضوء الصبْغة السائدة عليه. فالمرء يكون حرًا فيما يفكر فيه إلى حد ما، ومنضبطًا أيضًا إلى حد ما، فيكون مقيَّدًا ومنضبطًا فى الغالب عندما يقوم بتجسيد فكره فى كلام، أو فى ملامح وجه، أو فى حركات أو تصرفات.

ثالثًا - العاطفة الحرة والعاطفة المنضطبة: وكذا فإن العاطفة قد تكون متحررة، كما أنها قد تكون منضبطة. فالمرء قد يطلق العنان لعواطفه للتعبير عن نفسها، كما أنه قد يضبطها، ويسمح لها بالتعبير عن نفسها فى نطاق الصيَغ التى يقبلها المجتمع، أو فى حدود ما يقبله الأشخاص الذى توجَّه إليهم تلك العاطفة، سواء بالحركات أم بالكلام أم بالنظرات أم بغير ذلك من وسائل التعبير عن العواطف، سواء كانت عواطف حب، أم كانت عواطف كراهية.

رابعًا - الإرادة الحرة والإرادة المنضبطة: وكذا فإن إرادة المرء، قد تكون حرة بإزاء بعض التصرفات والمواقف، كما أنها

قد تكون ملْجمة ومنضبطة بإزاء تصرفات ومواقف أخرى. والواقع أن المجتمع يحدِّد المجالات والمواقف التى يُسمح فيها بأن تعبِّر فيها الإرادة بحرية عن نفسها، كما يحدِّد المجالات والمواقف التى يجب على المرء أن يُلْجم إرادته بإزائها، ولا يسمح لها بالتعبير عن نفسها، إلا فى الحدود التى يسمح بها، ويوافق عليها.

خامساً - الحرية الفردية والحرية الفئوية: فالواقع أن من الممكن أن ننظر إلى الحرية والانضباط من زاوية الفرد، كما يمكن أن ننظر إليهما من زاوية الفئات الاجتماعية، باعتبار أن كل فئة منها تُشَكِّل وحدة فردية متعيَّنة. فكما أن الفرد يتمتع ببعض الحريات، بينما تُفْرض عليه بعض القيود والضوابط السلوكية، كذا الحال بالنسبة للفئات الاجتماعية. فالفئة الاجتماعية تتمتع ببعض الحريات، كما تُفْرض عليها بعض القيود والضوابط، وذلك فى ضوء الوضع الاجتماعى الذى تحتله بالمجتمع.

أهمية الحرية والانضباط للفرد والجماعة:

وعلينا بعد هذا أن نلقى الضوء على أهمية الحرية والانضباط للفرد والجماعة، فنجد أن هذه الأهمية يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً – بالنسبة للاستعدادات والمواهب: فالواقع أنه إذا لم تتوافر الحرية للفرد والجماعة، فإنهما لا يستطيعان استثمار ما فى قوامها من استعدادات ومواهب. ولكن من جهة أخرى، فإن الانضباط يكون بمثابة القائد الذى يحدِّد الطريق المناسب والمفيد، لاستثمار الاستعدادات والمواهب بالطريقة السليمة، ولتحقيق أهداف وغايات اجتماعية مرغوب فيها. ومعنى هذا أن الحرية تُعَبِّر عن انطلاق الاستعدادات والمواهب، كما أن الانضباط يعبِّر عن المسالك الخليقة بأن تُصَب فيها تلك الاستعدادات والمواهب، وأن الحَيْد عنها، معناه التخبط فى أى اتجاه بغير تمييز بين الخير والشر، أو بين المناسب وغير المناسب، أو بين المفيد والضار.

ثانياً – بالنسبة لاستقلال الشخصية وديناميتها: فلولا الحرية التى يتمتع بها الفرد وتتمتع بها الجماعة، ما كان لهما إذن أن يُحَرِّرا استقلال شخصيتيهما، وما كان لهما أيضاً أن يتمتعا بالدينامية، أعنى انبثاق السلوك من دخيلتيهما. فالواقع أن الضغوط الخارجية إذا زادت عن حدها المعقول، فإنها تخرج عن حدود الانضباط إلى نطاق التَعَنُّت، وبالتالى إزالة الملامح التى تتفرد بها شخصية الفرد، أو شخصية الجماعة. فالانضباط إذن مطلوب لا لمسخ الحرية، بل لترشيدها، ومساعدة شخصية الفرد وشخصية الجماعة على التميُّز والتفرُّد.

ثالثًا - إبراز الفروق الفردية بين الأفراد، والفروق الجماعية بين الجماعات: فالواقع أن الحرية التى يجب أن يتمتع بها الأفراد والجماعات، هى التى تؤهلهم لأن يتباينوا بعضهم عن بعض، من حيث المستويات، ومن حيث السِمَات الشخصية لكل فرد، ومن حيث السمات الجمعية لكل جماعة. بيد أن الانضباط يعمل أيضًا بالتعاون مع الحرية على إبراز الفروق الفردية والفروق الجماعية. ذلك أن الفرد يستعين بالانضباط الذاتى لكى يحافظ على إنِّيته من الانصهار والاندماج فى إنِّيات الأشخاص الآخرين، كما أن الجماعة كائنةً ما كانت، تستعين بالانضباط الجمعى لكى تحافظ على إنِّيتها من الانصهار والاندماج فى إنِّيات الجماعات الأخرى.

رابعًا- الانتقاء من بين الخيارات المتوافرة بالواقع الخارجي: فالحرية التى يتمتع بها الفرد، أو تتمتع بها الجماعة، تسمح لهما بأن يَعْقدا المقارنات بين الخيارات الكثيرة المتوافرة بالواقع الخارجى، سواء فى ذلك بالنسبة للفرد، أم بالنسبة للجماعة. وفى ضوء تلك المقارنات، يتسنى لهما أن يقعا على الخيارات المناسبة للمستوى النمائى الذى توصَّلا إليه. والتى تكون مناسبة لاستعداداتهما ومواهبهما، ولِما يمكن أن يفْضى إلى نتائج أفضل، وإلى فوائد أكثر فى الحاضر والمسقبل جميعًا.

خامساً - الإفادة من النقد الذاتى ومن النقد الخارجى:

فلولا تمتُّع الفرد والجماعة بالحرية النسبية، ما كان لهما إذن، أن يَفيدا من توجيه النقد إلى ذاتيتيهما من جهة، ولما كان لهما أن يَفيدا من النقد الذى يُوَجَّه إليهما من خارج نطاقهما من جهة أخرى. فالواقع أن الفرد أو الجماعة اللذين تصادر حريتهما، ويكون الانضباط الموجَّة إليهما مبالغًا فيه، يفقدان القدرة على تسيير قوامهما، وتعديل سلوكهما بانطلاق ذاتى من دخيلتيهما، بل يظلان فى حالة خضوع مستمر لما يُفْرض عليهما من قيود، أو من توجُّهات، من خارج نطاقهما، وليس من خَلْقهما أو نتيجة استحسانهما.

الدور الذى يلعبه الضمير بإزاء الحرية والانضباط:

وعلينا بعد هذا، أن نقوم بإلقاء الضوء على الدور الذى يلعبه الضمير بإزاء الحرية والانضباط، فنجد أن هذا الدور يمكن أنه يتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- التقييم والتمييز: فالواقع أن الضمير الفردى، والضمير الجمعى، يقومان بالتقييم والتمييز بين الخيارات الكثيرة التى توجد بالمواقف المتباينة. وكلما كان التوازن متوافرًا بين الحرية والانضباط، سواء بالنسبة للفرد، أم بالنسبة للجماعة، فإن قدرة الضمير على التقييم والتمييز، تكون على جانب أكبر من الكفاءة والفاعلية.

ثانياً – اتخاذ القرار المناسب: وكذا فإن الضمير يكون أكثر قدرة على اتخاذ القرار المناسب، بإزاء كل موقف من المواقف الكثيرة التى تجابه الفرد والجماعة، ما دام التوازن متوافرًا فيما بين الحرية والانضباط.

ثالثًا– محاسبة الفرد والجماعة على الفرص الضائعة: فالواقع أن الضمير يقوم بلَوْم الفرد ولَوْم الجماعة بإزاء ما فوّته من فرص كانت الحرية المنضبطة متوافرة خلالها أمامهما، ولكنهما لم يستغلاها الاستغلال الأمثل. فالضمير لا يهدأ له بال، إذا ما قصَّر صاحبه فى حق نفسه، سواء كان فردًا أم جماعة.

رابعًا – شحذ الهمة لاستثمار الفرص المقبلة:

ولكن الضمير السوى، لا يُلْقى باللوم على طول الخط، بل إنه إلى جانب معاتبته للفرد والجماعة على تفويت الفرص التى كانت متاحة أمامها لاستغلالها ، فإنه يثير فيهما الحَمِيَّة أيضًا ، لكى يشمِّرا عن ساعد الجِد ، وتحيُّن الفرص المقبلة ، لاستغلالها أحسن استغلال ، ولاستشفاف دروسٍ ناجعة من أخطاء الماضى ، ونفض غبار التواكل والتقاعس الذى ران عليهما ، بينما كانت الفرص المتاحة أمامهما متوافرة لبلوغ مستويات عليا من التقدم والازدهار ، ولكنهما لم يستغلاها فى حينها .

خامساً - الحث على التذرع بالوسائل الناجعة: والضمير السوى لدى الفرد والجماعة، يدأب على حثهما على الاستعانة بالمعرفة الجيدة وبالمهارات المفيدة، وبالقيم الفعالة المثمرة، وبالعلاقات الاجتماعية الخصبة، بحيث يمكن بواسطة هذه الذرائع وغيرها، أن يشقا طريقهما بنجاح فى الحياة، وأن يَبْلُوا بلاءً حسنًا فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد على السواء.

أخطاء الضمير بإزاء الحرية والانضباط:

وعلينا فى نهاية المطاف أن نلقى الضوء على أخطاء الضمير بإزاء الحرية والانضباط لدى الفرد والجماعة على السواء، وهى على النحو التالى :

أولاً - الخَلْط بين الحرية والتسيُّب: فلقد يكون ضمير المرء أو ضمير الجماعة، غير متمتعَيْن بالقدرة الكافية على التمييز بين الحرية والتسيب . فلا يأخذان الانضباط فى حسابهما، بل يرغبان فى أن تكون الحرية التى يتمتع بها الفرد أو تتمتع بها الجماعة، حرية مطلقة غير مقيَّدة بأى قيد، وبالتالى فإنهما يخلطان بين تمتع الفرد أو الجماعة بالحرية وبين انطلاقهما لا يلويان على شىء، ولا يستمسكان بالقيم والتقاليد والأعراف الاجتماعية .

ثانيًا - الخلط بين الانضباط وبين التجبُّر: ولقد يتخذ ضمير الفرد أو ضمير الجماعة الموقف العكسى المناهض للموقف السابق ، فيعتبران أن الحرية بأى معنى وبأى مستوى، إنما هى إفساد للشخصية ، وضياع للضوابط التى يجب أن تُلْجمها . فهما لا يرغبان فى تحقيق التوازن بين الحرية والانضباط ، بل يرغبان فى أن يسود الانضباط بأعنف أشكاله ومعانيه، أو بتعبير آخر فرض القيود الصارمة على فكر المرء وفكر الجماعة وعواطفهما وإرادتيهما .

ثالثًا - التذبذب بين الحرية والانضباط: ومن الأخطاء التى يمكن أن يتردَّى فيها ضمير الفرد أو ضمير الجماعة ، عدم الثبات على سياسة واحدة بإزاء الحرية والانضباط، بل الانحياز للحرية المطلقة فى بعض الأوقات ، وفى بعض المواقف ، ثم الانحياز للانضباط فى أوقات أخرى ومواقف أخرى . فلا تكون ثمة صبغة ثابتة نسبيًا للشخصية الفردية أو للشخصية الجماعية .

* * *

الفصل الرابع عشر

الضمير والتردد بين موقفين

بعض حالات التردد بإزاء الخيارات :

لقد يحدث أن يكون أمام المرء موقف من موقفين ، أو خيار من خيارين ، ويكون عليه أن يقع على واحد منهما ، ويترك الآخر . ولا شك أن الضمير يلعب دورًا فى مثل هذه الحالة . ولكن قبل أن نلقى الضوء على ذلك الدور الذى يلعبه الضمير ، فإن علينا أن نلقى الضوء على جانب من الحالات التى يتردد بإزائها المرء بين موقفين أو بين خيارين ، فنجد ما يأتى :

أولاً – الاختيار بإزاء الطعام : فلقد تتجه إلى أحد المطاعم لتناول إحدى الوجبات ، فيقدم إليك الجرسون قائمة بالأطعمة الموجودة ، فتجد أمامك مجموعة من الوجبات الشهية التى تحبها جميعًا . ولكن حبك لتناولها ليس على مستوى واحد ، بل تفضل بعضها على بعضها الآخر . فتأخذ فى حذف الأقل

اشتهاءً لتناوله ، واحدًا بعد الآخر ، إلى أن يتبقى أمامك نوعان من الأطعمة تحار فى اختيار واحد منهما وترك الآخر. وتظل خلال برهة من الزمن فى حيرة من أمرك ، إلى أن تقع على أحد الخيارين ، وتنتهى إلى اختيارك له .

ثانيًا – **الاختيار بإزاء الملبس** : والشىء نفسه ، قد يحدث عندما تذهب إلى محل الملابس لتختار بدلة فتشتريها. إنك قد تقف أمام بدلتين تعجب بهما على نفس المستوى من الانبهار بهما ، وتستولى عليك الحِيرة بإزاء البدلة التى سوف تختارها منهما ، وتظل فى حالة تردُّد بعض الوقت ، إلى أن يقع اختيارك النهائى على واحدة منهما .

ثالثًا – **الاختيار بإزاء شريك العمر** : ومن الخيارات الخطيرة فى حياة المرء ، اختيار شريك الحياة أو شريكة الحياة . لقد تكون قد أقمت علاقة صداقة مع زميلتين بالكلية التى تدرس فيها ، أو فى مقر العمل الذى تعمل به ، وقد توطَّدت علاقتك بهما جميعًا ، ولكنك لا تجد ميزة فى إحداهما ليست متوافرة فى الأخرى . فهما على مستوى واحد من جميع الجوانب ، من حيث الجمال والثقافة والأصل والمستوى الاقتصادى إلى آخر تلك المعايير التى تتصف بها كل منهما ، والتى تقاس فى ضوئها شخصية من ترغب فى

الارتباط بهـا فى الزواج. وكل منهمـا تعـاملك بروح المودة والحب، وتميل إليك كما يبدو من مـلامح وجههـا ، ومن طريقة تعاملها معك ، ومن تجاذب أطراف الحديث معك . ولكن لابد أن يقع اختيارك على واحدة منهمـا ، وأن ترجح كفة اختيارك لهـا ، وأن تفضّلهـا على الزميلة الأخرى . ولكنك تقف أمـام عملية الاختيـار فى حيرة ، فتضرب أخماسًا فى أسداس ، وتقـول لنفسك « إن التى سـوف لا يقع اختـيـارى عليـهـا وأهجرها، سوف تقطع صلتها بى ، وقد تحقد علىَّ وتبغض زميلتها التى فضلتُها عليها ، مع أن الوشائج بيننا قوية ، وهى صديقة حميمة لتلك الزميلة التى سوف يقع اختيارى عليها دونهـا ، مع أنهـا ليست أفضل منهـا ، بل إنهمـا على قدم المساواة ، فى كل شىء » .

رابعًا – بإزاء المفاضلة بين وظيفتين: والموقف المحيِّر نفسه يتبدى أمامك ، إذا كانت أمامك وظيفتان أنت مؤهل للالتحاق بأى منهمـا ، وقد تقدمت بالفعل إلى جهتى العمل المتباينتين اللتين رحبتا بك للتعيين طرفهمـا ، أمـا عن المرتب فهو واحد بالنسبة للوظيفتين ، وهما فى المدينة نفسها التى تقطن فيها ، والميزات فى كل منهما مساوية للميزات فى الوظيفة الأخرى . ولكن لابد من حسم الموقف ، وأن تقبل التعيين فى واحدة منهمـا . وها أنت قد قبلت فعلا لكى تُعيَّن بهمـا ، إذ وصلك

خطاب من كل من المؤسستين ، يرحب فيهما المسؤولون بك ، ويخبرك بقرار التعيين فورًا . فأنت لذلك فى حيرة من أمرك . ذلك أن المرتب واحد فى الوظيفتين ، والمستقبل يبشر بالخير إذا ما التحقت بهذه أو بتلك . فمن الطبيعى أن تأخذ بك الحيرة كل مأخذ ، وأن تظل فى حيرتك هذه إلى أن تقرر اختيار وظيفة منهما ، دون أن يكون لديك المبرر الكافى للاختيار .

خامسًا - المفاضلة بين تحدى الأشرار وبين مسالمتهم :

ولقد تكون المفاضلة التى عليك أن تحسمها ، متعلقة بالطريقة التى تتعامل بها مع من يعتدون عليك . فهل تقابل عدوانهم عليك بتجنُّبهم ، والابتعاد عن طريقهم ، ومسالمتهم على طول الخط ، وتنفيذ ما يرغبون فيه لتهدئتهم ، وتحاشى غضبهم ، وإشعال حرائق الغيظ ضدك ، أم أن تظهر لهم أنياب غضبك، وتعلن لهم أنك لا تخشى بأسهم ، وأنك على استعداد لنزالهم ، وأنك خليق بإيقاع الهزيمة بهم ، علمًا بأن أبواب الشرطة والنيابة والمحاكم مفتوحة على مصاريعها للنيل منهم ، وأن تؤكد لهم بأن نَفَسك طويل ، وأنك لا تتبرم بما يمكن أن ينشأ بينك وبينهم من قضايا طويلة الأمد . إلى آخر تلك الإجراءات المضادة ، بل والإجراءات الهجومية التى فى مُكْنتك . بيد أنك تتردد بين الانتحاء إلى الاتجاه السلمى وبين الانتحاء إلى

الانتحاء إلى الاتجاه الدفاعى الهجومى الذى تقابل بمقتضاه اللطمة بلطمة مماثلة أو أشد إيلامًا ، والعدوان بعدوان مماثل أو أشد منه . وهكذا يستمر ترددك لوقت يقصر أو يطول إلى أن تنتهى إلى قرار ، سوف يَتْبعه تنفيذ فلسفة من هاتين الفلسفتين : إما المهادنة ، وإما الرد على الهجوم بهجوم مماثل أو أقوى مما ل لقيته من عدوك .

موقف الضمير فى حالة التردد بين الخيارات :

وبعد أن قدمنا هذه العيِّنات الخمس من التردد فى الاحتيار من بين خيارين على مستوى متقارب ، أو على مستوى مساو ، من حيث القيمة أو الأهمية بالنسبة للمرء الذى عليه أن يقع على خيار واحد من بين كل خيارين ، فإن علينا أن نلقى الضوء على موقف الضمير فى حالة التردُّد بين الخيارات التى تصادف المرء فى حياته ، فنجد أن هذا الموقف يتحدَّد على النحو التالى :

أولاً – التقييم المقارن : فضمير المرء يأخذ فى المقارنة بين الخيارين اللذين يوجدان أمامه ، من زوايا متباينة . فهو يوازن فيما بينهما من زاوية الفائدة والضرر ، ومن زاوية الجمال والقبح ؛ ومن زاوية الحلال والحرام ، ومن زاوية المتانة والهشاشة ، إلى آخر الزوايا التى تتناسب مع طبيعة

ووظيفة الشيئين ، أو الموقفين ، أو الإجراءين اللذين يعقد المرء المقارنات فيما بينهما .

ثانيًا – التقييم التوظيفي : فضمير المرء يأخذ فى تقييم كل ثنائية من تلك الثنائيات التى يتردد فى اختيار طرف من طرفيها ، فى ضوء مدى قدرته على توظيف كل منهما . فكل ثنائية يقابلها ، لابد أن يُقَلِّبها على أوجهها المتباينة ، حتى يتسنى له أن يختار قطبًا من قطبيها لكى يوظِّفه ، ويفيد منه. فهو يتساءل بينه وبين نفسه ، عما إذا كان قد اكتسب المهارات المناسبة لتوظيفه ، أو للتعامل معه ، فيقع على الأكثر قدرة لديه على توظيفه .

ثالثًا – المقارنة فيما بين النتائج التى تترتّب على الاختيار: وضمير المرء وهو أمام الاختيار من بين قطبى إحدى الثنائيات التى عرضنا لعيِّنات منها ، يكون قطباها متساويين أو متكافئين من حيث القيمة ، يعمد إلى التطلع إلى النتائج التى سوف تترتب على اختيار قطب من قطبيها ، ويقارن بين النتائج المحتملة التى يمكن أن تتأتى عن الوقوع على اختيار كل قطب من القطبين ، ويقلِّب مقارناته عى أوجهها الممكنة .

رابعًا – المقارنة فيما بين الصعاب أو العقبات والمشكلات التى يمكن أن تترتب على الاختيار : وضمير المرء ، يتصفح أيضًا الصعاب والعقبات والمشكلات التى يمكن أن تترتب على

اختيار أى فرع من فرعى الثنائية التى يجابهها ، وعلى الانتحاء إلى اختيار فرع من فرعيها ؛ وهل سوف يتسنى له أن يتغلب على تلك الصعاب والعقبات ، وأن يتسنى له القيام بحل تلك المشكلات التى سوف تجابهه ، إذا ما قرر اختيار فرع من الثنائية التى يَحَار فى الانتقاء من بين قطبيها .

خامساً : الإيحاء والتقليد : وبالإضافة إلى ما ذكرناه قبلاً ، فإن ضمير المرء يقارن موقفه بموقف الآخرين ، الذين يُكِن لهم التقدير والاحترام ، ويثق فى قدرتهم على الاختيار الحصيف . فهو يهدأ بالاً إذا ما ضرب فى الطريق الذى ضرب فيه أولئك الأشخاص الذين يثق فى حسن تصرفهم ، وسلامة انتقائهم . ولعله يتخذ من بين أولئك الأشخاص مُثُلاً عليا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فهم معصومون من الطيش والخطأ فى الاختيار . ومن ثَمَّ فإنه يقتبس من سلوكهم ، ويحتذى بهم ، حتى يضمن لنفسه حسن الاختيار ، والتنزُّه عن الوقوع فى الخطأ ، أو الانحراف عن الجادة ، بإزاء ما انتحوا إليه من خيارات مُصِيبة وسديدة .

أخطاء الضمير بإزاء الخيارات :

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الأخطاء التى يمكن أن يتردَّى فيها الضمير بإزاء الخيارات التى تنطرح أمامه لكى يقع على

خيار من بين خيارين ، عليه أن يبت فى اختيار أحدهما ، فنجد أن تلك الأخطاء يمكن أن تتحدَّد فيما يلى :

أولاً – الوقوع في مطب الوسوسة: فالشخص الموسوس، يقف أمام الخيارات التى تتوافر فى الموقف ، دون أن ينتهى إلى خيار منها ، فلا يتسنى له أن يرسو على بر الاختيار الذى يطمئن إليه ، ويعتمد عليه ، ولا يغيِّره . والواقع أن الشخص الموسوس ، إما أن يقف أمام الخيارين يجيل فيهما ذهنه ، دون أن يتسنى له التوصُّل إلى قرار ، وإما أنه يتذبذب بين الخيارين المطروحين أمامه ، فيختار واحدًا منهما ، ويؤكد لنفسه ، ولمن حوله ، أنه لن ينتقل من خياره إلى أى خيار آخر، ولكنه ما يفتأ أن ينبذ ما اختاره بالفعل ، وينتقل إلى الخيار الآخر ، ثم يعود مرة ثانية فثالثة فرابعة إلخ ، إلى التنقل بين الخيارين إلى ما لا نهاية . وهذا هو دأب الشخص الموسوس . (انظر كتابنا **سيكولوجية الشك** دار غريب بالقاهرة) .

ثانيًا – رفض الخيارين جميعًا : ومن الأخطاء التى يمكن أن يتعرَّض لها الضمير ، رفضه للخيارين اللذين يوجدان بالموقف ، ثم العودة إليهما وإعادة التفكير فيهما ، ثم رفضهما، ثم العودة إليهما بالتفكير والمقارنة . وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .

ثالثًا - الاختيار الاعتباطى : ومن أخطاء الضمير ، انتحاء صاحبه إلى الاختيار دون تبصُّر بما يقوم باختياره ، فهو يختار عشوائيًا ، بغير انتقاء على أى أساس كائنًا ما كان . وبتعبير آخر فإن اختياره يكون رهن المصادفة البحتة ، إذ إنه لا يكلِّف خاطره بأن يُنْعِم النظر فى اختياره ، بل ينحو إلى العشوائية، أو إلى الارتكان إلى ما قد يحمله له الحظ الباسم.

رابعًا - الاعتماد على الآخرين فى الاختيار : وقد يكون صاحب الضمير فاقدًا الثقة بالنفس ، بينما يعتقد أن من بين الناس الذين يُوَلِّيهم ثقته ، من يتسنى لهم الاختيار له وبدلاً منه . أما إذا هو جازف وقام بالاختيار فى استقلال عن مشورة وإرادة الآخرين ، فإن اختياره سوف يكون بكل تأكيد اختيارًا خائبًا . فالضمير فى هذه الحالة ، يكون ضميرًا عيِّلاً على الآخرين ، ولا يكون له أى حظ من الفُطَام النفسى .

خامسًا - الضمير النادم : ولقد يكون صاحب الضمير ، من النوع الذى يحس بالخطأ بإزاء أى خطوة يَتَّخذها فى حياته . فبعد أن يقع اختياره بتبصر وتفهُّم ورويَّة ، فإنه يستشعر الندم يحز فى قلبه . ومهما كانت النتائج التى تترتَّب على ما قام باختياره طيبة، ولم يكن يطمع فى أن يحوز نتائج أفضل من تلك التى حصل عليها ، فإنه يدأب بصفة مستمرة

على الشعور بالندم ، بعد أن يقوم بالاختيار بحرية وروية ، وبعد أن يحصل على النتائج الطيبة نتيجة اختياره . ولكنه التشكك فى شخصيته ، وفى نجوع اختياراته ، وعجزه عن الاعتماد على نفسه، بينما لسان حاله يؤكد له بصفة مستمرة، أنه لو كان قد قام غيره بالانتقاء والاختيار له بدلاً منه ، من بين الخيارات المتوافرة فى الموقف ، لكان اختياره إذن أفضل مما انتهى إليه ، واختاره بنفسه . وهذا هو الحضيض الذى يتردّى فيه الشخص صاحب الضمير النادم باستمرار ، على جميع الخطوات التى يتخذها بمحض إرادته ، حتى بعد التمحيص والتمعّن والروية .

* * *

الفصل الخامس عشر

ضمير المبدع

خصائص شخصية المبدع :

قبل أن نلقى الضوء عى ضمير المبدع ، علينا أن نتناول شخصيته بالتحليل ، لنقف على ما تختص به من خصائص ، فنقف على الحقائق التالية :

أولاً - التبرُّم بالمألوف والمعتاد : فعلى الرغم من أن المبدع يتمرَّس بمجموعة من العادات العقلية ، والعادات الوجدانية، والعادات الحركية ، والعادات التعبيرية، والعادات العلائقية ، فإنه لا يركِّز طموحه فى نطاقها ، بل إنه يتبرَّم بكل ما هو مألوف ومعتاد وممارس فى الواقع الاجتماعى ، ويصبو إلى اكتشاف المجهول غير المسبوق ، وتقديمه إلى المهتمين بتلقُّف الجديد المبتَكر . ولكنه بعد أن يصل إلى ذلك الجديد الذى لم يسبقه أحد إليه ، فإنه يعتبره مألوفًا ومعتادًا بالنسبة له ، وبالتالى فإنه يتبرَّم بما انتهى إلى ابتكاره، ويتشوَّف إلى ما هو جديد لم يصل إليه هو شخصيًا بعدُ . وبتعبير آخر فإن المبدع دائم الاشتياق إلى تقديم ما لم يَسْبق له أو لغيره أن قدَّماه .

ثانياً - التنقيب الدائم عن كنوز استعداداته ومواهبه المطمورة بدخيلته : والمبدع يحس بأن ما استطاع استثماره من استعداداته ومواهبه ، ليس سوى شذرات قليلة من الكثير جداً المطمور بأغواره الداخلية . فهو فى تنقيبه عن تلك الكنوز النفسية المطمورة ، قد ينجح وقد لا ينجح فى كشف النقاب عنها ، واستثمارها وتوظيفها فى الواقع العملى . وكلما وُفِّق إلى استثمار جانب من تلك الاستعدادات والمواهب ، فإنه يحس بأنه لم يقيَّض له سوى استثمار شذرات قليلة مما فى جُعْبته منها ، وأن البون شاسع بينه وبين استثمار جميع ما لديه مما لم يستثمره بعدُ .

ثالثاً - التفاعلات الخِبرية بدخيلة المبدع : والمبدع يمتاز بأن التفاعلات الخِبرية التى تتم فى قوامه الداخلى ، خصبة للغاية ، ومتزايدة باستمرار ، وعلى أكبر جانب من الدقة ، فيترتب على اعتمالها ، تكوين مركَّب خِبرى ، يستمر فى التفاعل مع خبراته الجديدة. فالمبدع لا يبدأ من الصفر فى كل موقف ، يتصل بالفكر أو بالوجدان أو بالإرادة ، بل يبدأ من حيث انتهى إليه مُركَّبه الخِبرى من نمو ونضج. فقيامه باستثمار ما فى جُعْبته من استعدادات ومواهب ، يتم بين آخر مستوى توصَّل إليه مُركَّبه الخبرى ، وبين ما يتسنى له اكتشافه من استعدادات ومواهب مطمورة بدخيلته .

رابعًا - التفاعل المستمر مع أحداث الماضى ووقائع الحاضر وتوقُّعات المستقبل : والمبدع لا يسجن عقله ووجدانه وإرادته ، فى زنزانة الحاضر ، بل يمتد بأفقه إلى الماضى والمستقبل . فهو يرى الزمان فى وَحْدة متفاعلة بعضها مع بعض ، ومتَّصلة اتصالاً وثيقًا بعضها ببعض . ذلك أنه لا يرى لوجوده قيمة ، إلا بتحقيق الاستمرارية والاتصالية والتفاعلية بين ماضيه وما اكتسبه خلاله من خبرات ، وبين حاضره المفعم بالأحداث والوقائع ، وبين مستقبله الذى يمتد بخياله إليه ، ويُشَكِّل بإزائه صورًا ذهنية نابضة بالحياة ، يحاول اقتناصها وإحالتها إلى واقع حاضر .

خامسًا - ترجيح الرمزية على الواقعية : فعلى الرغم من أن المبدع يؤثر فى الواقع من حوله بشكل مُبْهِر ، فإنه فى الحقيقة ، يُرَجِّح كفة الرموز فى حياته على الواقع ، أو قل إنه يُخْضِع الواقع للرموز التى تشير إليه ، أو إنه يجند الوقائع المحسوسة ، لخدمة الرموز التى تعتمل فى ذهنه ، فتقوم بتشكيل تلك الوقائع المحسوسة ، لتحقيق أهداف يترسَّمها .

الدور الذى يلعبه ضمير المبدع :

وبعد أن قمنا بتقديم هذه الخصائص الخمس الأساسية فى شخصية المبدع ، فيكون علينا أن نقوم باستطلاع الدور الذى يضطلع به ضميره فى حياته الإبداعية ، فنجد أن هذا الدور يمكن أن يتحدَّد على النحو التالى :

أولاً – الندم على الوقت الضائع غير المستثمر : فضمير المبدع يؤنِّبه على ما فاته استثماره من وقت ، عَبْر حياته الماضية ، منذ طفولته ومرورًا بمراهقته وشبابه . فهو يعتقد أنه لو كان قد استثمر كل ما مر فى حياته الماضية من فرص ، لكان مستوى إبداعه اليوم أفضل مما توصَّل إليه بالفعل ، وعلى مستوى أسمى ، ولكان بالتالى قد وُفِّق ، فى المجال الذى يهتم به ، إلى إبداعات كثيرة وعظيمة ، ورائعة الجودة ، وبالغة الفائدة ، وعلى أعلى مستوى من القيمة .

ثانيًا – تحاشى مُشتّتات الفكر ومُضيّعات الوقت : وحيث إن المبدع يحس بالندم على إضاعة جميع الفرص التى فلتت من قبضته ، عَبْر مراحل عمره السابقة ، فإنه بالأولى يهتم بعدم إضاعة أى لحظة من وقته الحالى ، دون استثمار . وبالتالى فإنه يتحاشى كل ما يمكن أن يؤدى إلى تشتيت انتباهه ، وضياع طاقته ، فى غير ما حدَّده من أهداف ومَرَام ، يرجو تحقيقها . وهى الأهداف والمَرَامى التى يعمل على تجديدها بصفة مستمرة ، فيكون بذلك خصبًا باستمرار فى فكره ، وفى آماله وطموحه .

ثالثًا – الشعور بنقص الإمكانات والمهارات: ومهما قيِّض للمبدع من إمكانات ومهارات ، فإنه يحس فى قرارة نفسه ، بأن ما فى حوزته منها ، أخفض مستوى من إمكان تجسيد كل ما يعتمل فى عقله من صور ذهنه ، بنفس مستوى نصاعتها

وحيويتها ، وذلك بسبب عجزه عن تجسيدها وإخراجها إلى حيِّز الواقع ، نتيجة انخفاض مستوى إمكاناته ومهاراته ، وانحصارها فى نطاق ضيِّق .

رابعاً - تحقيق التوازن بين الاعتكاف وبين التعامل مع الواقع والتفاعل معه : فالمبدع يحاول باستمرار أن يحقق التوازن بين دخيلته وخارجيته . ذلك أن الشخص الذى يخاصم الواقع أو يخاصم دخيلته ، لا يتسنى له أن يتمتع بالصحة النفسية الجيدة . أما الشخص الذى يتسنى له تحقيق التكامل فيما بين الصور الذهنية ، والوجدانات الفائرة، والنزوعات conations المتحفِّزة للاستحالةِ إلى إرادة فاعلة من جهة ، بين الواقع الخارجى الذى يَعُج بالأحداث المتلاحقة، والمواقف المتباينة ، والعلاقات الثرية ، فإنه يستطيع إذن أن يقدِّم ما هو جديد ، ومتَّصف بالإبداع .

خامساً - الثقافة الأفقية والثقافة الرأسية : فالشخص المبدع ، لا يكتفى بأن يقطف من كل شجرة زهرة ، وأن يُلم بأكبر قدر من الثقافة المتنوعة ، بل إنه يعمِد إلى التعمُّق فى فرع معين من الثقافة ، ويُوليه بأكبر قدر من جهده ووقته . ولا غنى للمبدع عن الثقافة بالمعنى الأفقى وعن الثقافة بالمعنى الرأسى التعمقى . فهو يزاوج بين الثقافتين ، وكل ما يصل إليه من ثقافته يتفاعل معه ، بواسطة مركّبه الخِبرى الذى ذكرناه قبلاً . وبمناسبة الثقافة ، فإن المبدع يجمع فى نطاقه الخبرى،

الثقافة المعرفية الاستقبالية ، والثقافة المعرفية التصديرية ، والثقافة المهارية ، والثقافة العلائقية الاجتماعية ، والثقافة الاستشفافية المستقبلية . فهذه الروافد الخمسة للثقافة ، تتكامل فيما بينها فى شخصية المبدع . وهو يحاسب نفسه بواسطة ضميره إذا كان قد حُرم من أى رافد من هذه الروافد الخمسة ، ولم يحصل بإزائه على القدر الكافى منه ، أو لم يحظ بالنصيب العادل من أى منها جميعا .

الأخطاء التى يقع فيها ضمير المبدع :

وعلينا بعد هذا أن نستعرض الأخطاء التى قد يقع فيها ضمير المبدع ، فنجد أن هذه الأخطاء يمكن أن تتحدَّد فيما يلى :

أولاً – الانتحاء إلى الإبداع الهدمى التخريبى : فلقد تكون نفسية المبدع مريضة ، ومنحرفة إلى طريق الشر . فليس جميع المبدعين أصحاب ضمير خيِّر وسَوِى ، بل إن بعضهم يكون مفعمًا بالشر ، وملتويًا من الناحية النفسية . فصاحب الضمير الملتوى من المبدعين ، يصب إبداعاته إلى الشر ، بما يتضمنه من هدم وتخريب .

ثانيًا – إنفاق الجهد الإبداعى فى الفسق والفجور : فلقد ينحرف ضمير المبدع ، فتغلبه النوازع الشريرة ، ويدفع به بريق السلوك المنحَرف جنسيًا أو عدوانيًا إلى ألوان السلوك

المنحرف أخلاقيًا . فكم من مبدعين ، وكم من أشخاص لديهم استعدادات ومواهب إبداعية ، قد زُجَّ بهم فى السجون ، بسبب انحرافاتهم السلوكية . وبدلاً من الإشارة إليهم بالبنان ، وتعظيم شأنهم ، فإنهم يُعْتبرون من سِفْلة القوم ، وممن شجعوا غيرهم على الانجراف فى طريق الشر والمجون .

ثالثًا - السقوط فى هُوَّة الجنون : ومن بين أخطاء الضمير أيضًا ، التى يمكن أن يقع فيها بعض المبدعين ، الانخراط فى منزلق الجنون . وقد يتأتى ذلك نتيجة لمقاطعة الواقع ، والانكفاء على الذات ، أو عكس هذا ، بالانهماك فى الواقع الخارجى ، ومخاصمة النوم ، وعدم هضم الخبرات المستمدة من ذلك الواقع الخارجى ، فالشخص صاحب الإبداعات المذهلة ، يمكن أن يصير بين فئة المجانين العقلانيين ، أعنى أولئك الذين ينسلخون عن الواقع الخارجى تمامًا ، أو يمكن أن يصير من فئة المجانين الاجتماعيين ، أعنى أولئك الذين يهاجمون الناس من حولهم ، ويأتون بالتصرفات المُشينة التى تتنافى مع ما يرضاه المجتمع ويباركه، ويماشى المنطق والعقل الرصين .

رابعًا - الأوهام والإحباطات : ولقد يصاب ضمير المبدع بالأوهام ، فيعتقد مثلاً أنه بإبداعاته قد أضل الكثير من المراهقين والشباب ، أو قد يصاب بالإحباطات التى تتأتى له من نَسْج خياله . فلقد يتساءل بينه وبين نفسه ، عما عاد

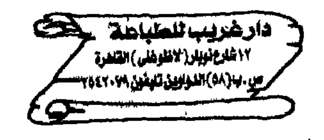
عليه من فائدة ، أو تميُّز ، بعد أن أفنى عمره فى الإبداعات التى أفادت غيره ، ولم تُفِده من قريب أو من بعيد . ويتأتى عما قد يساور المبدع من أوهام وإحباطات ، توقُّفه عن الاستمرار فى الإبداع ، فينضب مَعِينه ، ويتخلّف عن الركب ، ويهبط إلى مستوى الأشخاص العاديين ، أو أقلَّ منهم مستوى.

خامساً - السير فى الطريق المختصر إلى الشهرة وذيوع الصيت : فالكثير من المبدعين ، يخشون على أنفسهم من عدم تسليط الأضواء عليهم ، ومن أن يفوتهم قطار الشهرة وذيوع الصيت ، وبالتالى فإنهم يندفعون إلى وسائل الإعلام ، يبحثون فيها عمن يعلن عن عظمة إبداعاتهم ، فيجرفهم تيار الشهرة ، وقد يتكالب المسكون بوسائل الإعلام عليهم ، فيفقدون بذلك أعظم كنز كان فى أيديهم ، وهو العمل فى هدوء بعيداً عن الإعلام والإعلاميين ، وفى الظل بعيداً عن الأضواء . فكم من مبدع فقد قدرته على الإبداع بعد أن سُلِّطت عليه الأضواء فماتت قدراته الإبداعية ، أو قل إنها اختنقت لأنها لا تثمر إلا فى الظل بعيداً عن الأضواء .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



هذا الكتاب

يتناول موضوعاً من أهم الموضوعات التى تشغل جميع الناس، وهو من صميم الموضوعات التى يجب أن يُولْيها المفكرون بالاهتمام والدراسة، وبخاصة من يبحثون فى أغوار النفس البشرية، والمهتمين بالوقوف على أسرار شخصية الإنسان. وفى هذا الكتاب، يتناول المؤلف موضوع الضمير بطريقة موضوعية، ومن زوايا عديدة. ولعلّه ان يكون الأول الذى يتناول هذا الموضوع الخطير بطريقة موضوعية.

إنه كتاب جدير بالتناول والتأمل من جانب جميع المثقفين بغض النظر عن اهتماماتهم الثقافية،،،

هانى أحمد غريب